القضايا الجدلية بين المجلّة الزيتونية ومجلة La Tunisie catholique (تونس الكاثوليكية)

د. محمّد الفاضل اللاّفي[1]

مقدّمة

تأطير البحث:

يهدف البحث إلى التعرّف على ملامح الحضور المسيحي بتونس، ومدى استثارته للقضايا الحسّاسة، في ظلّ الاحتلال الفرنسي من خلال استنطاق نصوص الصحافة الناطقة باللّغة الفرنسية الموجّهة في عمومها للفرنسيين وطبقة النخب التونسية المتخرّجة من المؤسّسات التعليمية الفرنسية، وكذلك باستقصاء ذخيرة صحفية تونسية قيّمة، متمثّلة في المجلّة الزيتونية.

إنّ محتوياتهما عموما ليست تقارير إخبارية بحتة، بقدر ما هي تغطية صحفية أمينة لمختلف الأحداث اليومية في جميع مستوياتها، وكذلك استجابة لتطلّعات النّخب التونسية، كما هو حال المجلّة الزيتونية. لذلك فإنّ اختيار هذين المصدرين الصّادرين بتونس بدايات القرن العشرين سمح لنا بنسج تصوّر منسجم -إلى حدّ- مع الواقع محلّ الدراسة، باعتبار استيعاب الأوّل النشاط الكنسي لأهم المجالات الحيوية؛ الاجتماعية والتعليمية والصحية والإنسانية والثقافية، ولامس بامتياز السياسي، أمّا المصدر الثاني فهو تأريخ دقيق وأمين لمسيرة الكفاح الوطني في جانبها المعرفي الفكري وكذلك في تتبّعه لمسار التوجّه السياسي لرموز الحركة الوطنية التونسية.

ومن المفيد الإشارة في هذا السياق، إلى أهمية المصدرين في تحرير القضايا الجدلية موضوع البحث، فهما يقفان طرفَيْ نقيض منها، لطبيعة المنطلق والغاية، ممّا سيضفي صبغة خاصّة على الدراسة، والتي بنيت على رؤى متناقضة تتجاذبها

١- باحث بمركز البحوث والدراسات في حوار الحضارات والأديان المقارنة، سوسة، تونس.

غايات متنافرة، أو ما يمكن نعته بالاستقطاب الثنائي: الكنيسة والزيتونة. المؤسسة الدينية المسيحية حاضنة التنصير تنوّه بجهودها في ما أطلقت عليه مهمّة التثقيف والتحضّر التي تقوم بها في المجتمعات الإسلامية "المتخلّفة، الأمية، المريضة، الفقيرة..."[1]، وتعتبر، في معرض توسيم أحد الجنود، الحضور العسكري الفرنسي بتونس خدمةً للسلام[2]. بينما تؤمّن المجلّة الزيتونية في افتتاحية عددها الأوّل على أنّه "كان مفروضا على جامع الزيتونة وهو منبع الإسلام في هذا القطر والكلية الوحيدة التي تدرس فيها علوم الشريعة وعلوم العربية بجميع ما يتعلّق بها من الأصول والفروع أن يضرب بسهم في هذا المضمار، وكان أهله يشعرون بهذا الأمر الأكيد...كانت هذه أمنية الزيتونيين وكان يحول دون إتمامها عدة أسباب ويتكاتف في سمائها ضباب وأي ضباب حتى أراد الله إبرازها فذلت الصعاب"[٣]. ومن الملفت للنّظر التنويه بباب الوعظ والإرشاد "وهو من أعظم أبواب المجلّة حيث سيكون مجالا فسيحا لإرشاد النّاس وتنبيههم إلى مواقع الخطأ فيما هم سائرون عليه حتى يقلعوا عنه ويرجعوا إلى هدي الإسلام"[٤].

فالأنشطة الميدانية تكشف عن التوجّه العام للكنيسة وتوضّح المسار الذي تبنّته في التعاطي مع تلك القضايا الجدلية الحيوية، من منطلق ديني متناسق مع التوجّه السياسي لدولة الاحتلال الفرنسي مستجيبا لرغبة المعمّرين ودفعا للمنافسة الإيطالية على مستوييها الديني والسياسي. ممّا يطرح سؤالا رئيسا يعالجه البحث، يتعلّق بطبيعة ذلك التوافق في تبني شعار مشترك يبرّر الحملات العسكرية على تونس، ويبارك جنودها ويمنحهم أوسمة الاستحقاق العليا، متّخذا من مقاومة

1- Voir. l'article ; Gafour ; la mission de M. l'Abbé Glave : « Mais ce que n'oubliera pas l'auditoire c'est le magistral discours de la messe de minuit sur la rénovation social. morale et religieuse opérée dans le monde par la christianisme ». In. La Tunisie catholique (Archidiocèse de Carthage). N° 3. Dimanche 17 janvier 1932. p 32..

2- Mgr Gerlier : « Le monde entier aspire à la paix. Il la poursuit d'une volonté ardente ». In. La Tunisie catholique (Archidiocèse de Carthage). N° 3. Dimanche 17 janvier 1932. p 35.

٣- محمد المختار بن محمود: المقدّمة. المجلّة الزيتونية. مجلّة علمية أدبية أخلاقية، تصدرها هيئة من مدرسي جامع الزيتونة. ج ١ / م ١/ ر.جب ١٣٥٥، سبتمبر ١٩٣٦، ص ٣.

٤- نفس المصدر، ص ٤. ومن الأبواب المهمّة في المجلّة كما سنعرض لذلك بالتفصيل باب بعنوان الفتاوى والأحكام، نشرت فيه إجابات واردة على المجلّة وكذلك "أحكام شرعية صدرت عن المشائخ القضاة بتونس أو من المجلس الشرعي الأعلى بالحاضرة من قسميه الحنفي والمالكي حيث كانت تلك مشتملة على نظريات فقهية وتحقيقات علمية".

التخلّف والمرض وتحرير العبيد وتخليص الشعوب من الهيمنة سببا لبسط النفوذ وهيمنة بديلة. النفوذ باتّجاهيه المعرفي والأمني، والهيمنة بشقيها الثقافي والسياسي. وهو ما يُفصح عنه بجلاء الإرث المعرفي والعلمي الذي خلّفه الحضور المسيحي بتونس، من مؤسّسات تعليمية وثقافية وخدمية، تواصل بعضها حديثا في أشكال مختلفة، إن لم يحافظ على مؤسساته القديمة.

ومن هذا المنطلق، تعتبر المجلّة الزيتونية استجابة معرفية لذلك التحدي الواقعي، نقف على أهميته من خلال القضايا والإشكالات التي عالجتها خلال تسعة عشرة سنة (١٩٣٦ – ١٩٥٥)، سواء ما اصطلحنا عنه بالقضايا الجدلية أو المواضيع التأسيسية التثقيفية والإرشادية، وكذا الإجابة عن الأسئلة الواردة على أسرة المجلّة. هذا إلى جانب الأبواب الثابتة كما أشرنا إلى ذلك سابقاً.

لذا يجتمع في هذه الورقة المهمّة التفسيرية لتلك النصوص بُغية فهم الفلسفة العامّة التي أنتجتها، والدراسة الإحصائية الاستقصائية لمختلف الأنشطة الكنسية وتنزيلها ضمن سياقها الديني العام، وكيفية تفاعل المجلّة الزيتونية معها وإن لم تعاصرها، إذ المعوّل عليه في البحث القضايا وليس التزامن التّاريخي. وذلك لمحاولة صياغة تصوّر عام ورسم ملامح الحضور المسيحي بتونس في جميع أبعاده الدينية والمعرفية والاجتماعية، ومدى جدية مؤثّراته. وبناء عليه فإنّ الورقة تعالج قضية جزئية محدّدة سلفاً، ولا يمكنها استغراق كلّ تلك القضايا الجدلية على أهميتها.

أهمية الموضوع:

تحيلنا تلك الملابسات التي حفّت بالموضوع، كما ذكرنا في التأطير، على أهميته؛ المعرفية والمنهجية والتّاريخية، ودورها في تنضيج الجدل الديني، وذلك على النّحو التّالي:

- **الأهمية المعرفية:** من خلال إحصاء الرّصيد الهائل من المقالات والبحوث والندوات والمؤتمرات والحوارات واللّقاءات والأسئلة ودعوات الاستكتاب التي يزخر بها المصدران المعنيان بالبحث. والتي غطّت جميع الاهتمامات والمجالات؛ الدينية والعبادية والتشريعية والتثقيفية والفكرية والاجتماعية والاقتصادية

والسياسية، قضايا المرأة والأسرة والتعليم والشباب، والبحث العلمي والتّاريخ والجغرافيا، والأقليات الإسلامية بالغرب، والأقليات الدينية في العالم الإسلامي...

- **الأهمية المنهجية:** في طُرُق تناول تلك القضايا ومعالجتها، وأدوات النقد والتصويب والتقويم، وترتيب قضايا الحجاج ووسائله وآليات الردود. وهو عمل يستدعي استنفار كلّ الطاقات وبذل الجهد والاستعداد الذهني والمعرفي والأدبي، وتهيئة مناخه وتحقيق أسبابه.
- **الأهمية التّاريخية:** من حيث توثيق حقبة تاريخية مهمّة وحسّاسة في تاريخ تونس الحديثة. واعتبار صحيفة La Tunisie catholique مصدرا مهما لا غنى عنه لدارس تاريخ تونس خلال حقبة الاحتلال الفرنسي. باعتبارها تأريخ "وَفيٌ"[1] للأحداث التي عرفتها الحاضرة التونسية في تلك الفترة.
- **تنضَيج الجدل الديني:** وإن لم يكن مقصودا في ذاته، فقد تحقّق عرضيا، من خلال حركة الردود والنقد البنيوي الصّارم، وإن خالطه القصد التمجيدي الدعائي أحيانا. لذلك فإنّ أهمية الموضوع تكمن في نقطتين رئيسيتين:
  - الكشف عن طبيعة القضايا الجدلية.
  - بيان مدى أثرها على المجتمع التونسي من الناحيتين المعرفية والعملية في ما يتعلّق بتهيئتها الشعب التونسي للتصدي لمخطّطات الكنيسة وتوابعها وحلفائها.

أسباب اختيار الموضوع:

يتعلّق البحث بدراسة جزئية معرفية من تاريخ تونس وهي تحت سلطان الاحتلال الفرنسي. أي الهيمنة القهرية في جميع سياقاتها، خاصّة الدينية الحضارية. باعتبار الكنيسة الآلية الذكية في التخطيط والتنفيذ، وذلك لقيامها على جملة مهام نُجْمعها في الوظائف التالية: التعليمية والطبية والإنسانية الخدمية. ومن الواضح أنّها تتقاطع في ذلك مع مهام الإدارة الفرنسية القابضة بيد من حديد على

١- ليس في بعده الأخلاقي السلوكي وإنما من حيث دقّة استقصاء الأحداث وتوثيقها التاريخي. وذلك لحرص كنيسة قرطاج على توثيق مختلف نشاطها الكنسي بتونس كما تكشف عنه الصحيفة الأسبوعية المعنية.

مقاليد الأمور بتونس تحت مسمى الحماية، في ظل غياب شبه تام لسلطة السيادة الوطنية المتمثّلة في الباي وأجهزته الإدارية. ممّا هيّأ مناخ النشاط لمختلف البعثات الدينية، بدون حدود وضوابط، وفسح لها المجال في بناء الكنائس والمؤسسات التابعة لها في أغلب الجهات.

إنّ هذه الوضعية غير الطبيعية بكلّ المقاييس، أنتجت ردّة فِعل وحركة احتجاج في اتّجاهيه الفكري النظري والمقاوم العملي، والذي نُجمله فِي مصطلح حركة التحرّر الوطني، التحرّر من الاحتلال الفرنسي بمختلف أجنحته؛ اللينة والعنيفة، لاتحادها في الهدف والمضمون وتعدّد وسائلها.

إلاّ أنّ المصادر التونسية القيّمة، رغم تعدّدها وتنوّعها، لم تخصّ بالدراسة والتحقيق مسألة القضايا الجدلية بين الزيتونة والكنيسة، وتعالجها ببحث مستقل، وهو ما رغبنا في القيام به في هذه الدراسة، تحت عنوان: القضايا الجدلية بين المجلّة الزيتونية و La Tunisie catholique "تونس الكاثوليكية".

المنهج المعتمد في البحث:

تعتمد الدراسة في معالجة إشكالية البحث المنهج التاريخي الاستقصائي والتحليلي النقدي. إذ ينقسم العمل إلى جزأين رئيسيين هما؛ التعرّف على أهمّ القضايا الجدلية في المصدرين المعنيين، بالتركيز على عيّنة واحدة من الصحيفة الكنسية؛ مجموع أعداد سنة ١٩٣٢، وصفحاتها ١٣٨٣ صفحة، مع دراسة نموذج لتلك القضايا يتمثّل في المؤتمر الإفخارستي المنعقد بقرطاج في ٧ – ١١ ماي ١٩٣٠. أمّا عن المجلّة الزيتونية فإنّنا قمنا بجردها كاملة، ورتبنا مجموع قضاياها، واخترنا منها عيّنات محدّدة، لعرضها ودراستها، مقارنة بما ورد في صحيفة الكنيسة.

خطّة البحث:

استدعت دراسة تلك القضايا الجدلية أن يُنجز البحث وفق الخطّة التالية:

- مقدّمة: لتأطير الموضوع والتعريف بإشكالية البحث المركزية، ومنهجية إنجازه.
- التحدي الكنسي بتونس من خلال La Tunisie Catholique.

- القضايا الجدلية من خلال المجلّة الزيتونية.
- مقاربة منهجية للقضايا الجدلية.
- خاتمة.

المشكلات التي واجهت البحث:

- شحّ المصادر والمراجع المتّصلة مباشرة بموضوع البحث.
- تفرّق القضايا الجدلية الدقيقة في طيّات المجلّة الزيتونية و La Tunisie Catholique.
- وجود خيط رفيع بين ما هو قضايا جدلية وبين ما يمكن تسميته بالأسئلة العالقة المطروحة للنقاش في الأوساط المثقفة والنُخب التونسية، ممّا أدى إلى تشتّت الجهد المبذول، في اتّجاه تصنيف تلك القضايا، والتركيز على عيّنات منها. إذ جميع الإشكالات في كلا المرجعين تتواتر في نسق سريع وتتكرّر باضطراد، فمنها ما يمكن تصنيفه في نفس الموضوع ومنها الذي يتقاطع، ومنها ما يخدم بعضه، وكثير منها متباعد يعبّر عن تشتّت في الذّهن وتوتّر في المعالجة، كأنّ كلاهما يسابق أحداثا ووقائعها عرفها ذلك العصر، وهو ما يمكن الاصطلاح عنه بالصراع الصّامت بين المؤسّستين.

الاصطلاحات والرموز:

الدّين، النبوّة، الجدل، التنصير، الاستشراق، الغزو الفكري، المرأة، التعليم، الجمعيات، المؤتمر الافخارستي

البحوث السابقة:

لم تُسعفنا، مع الأسف الشديد، المكتبة التونسية ببحوث سابقة مرتبطة بموضوع البحث الذي نحن بصدده، إلاّ أنّنا نجد مصادر ومراجع على صلة بهذه القضية، وإن لم تعالج إشكالات وقضايا دقيقة تخدم البحث مباشرة في غرضه العلمي. من حيث استقصاء القضايا الجدلية بين المجلّتين المعنيتين بالبحث. إلاّ أنّنا وضعنا اليد على بعض البحوث الأصيلة التي يربطها خيط ناظم يسلُكها في التوجّه

العام للبحث، منها:

- الزّيتونة والزيتونيّون في تاريخ تونس المعاصر (١٨٨٣-١٩٥٨): المختار العياشي. مركز النشر الجامعي. جامعة الزيتونة، تونس ٢٠٠٣.
- النخبة العصرية التونسية؛ طلبة الجامعات الفرنسية ١٩٥٦- ١٩٨٠: عادل بن يوسف. دار الميزان للنشر، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بسوسة، ٢٠٠٦.
- الحركة الطالبية التونسية (١٩٢٧ - ١٩٣٩): محمد ضيف الله. أصل البحث؛ رسالة دكتوراه، قسم التاريخ – كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس، ١٩٩٤. نشر؛ منشورات التميمي للبحث العلمي والمعلومات، زغوان، ١٩٩٩.
- La Tunisie Catholique : Carthage 1930 ; actes et documents. Imp. WEBER & Cle. Tunisie. 1931.
- FrançoisARNOULET: Interférencesdiplomatiquesetpréoccupations politiques à l'occasion du congrès eucharistique de Carthage (Mai 1930). In. Revus d'histoire maghrébine. Ceromdi. Zaghouan. 18e année. N° 61 – 62. juillet 1991. pp 721-.
- Habib JAMOUSSI : Juifs et Chrétiens en Tunisie au 19e S. Essai d'une étude socioculturelle des communautés non-musulmanes (1815-1881). Edt.Amal. Sfax 2010.

التحدي الكنسي بتونس من خلال مجلّة "تونس الكاثوليكية" La Tunisie catholique:

تفيد المصادر التّاريخية الدّارسة للمسيحية بتونس في العهد الإسلامي، أنّ المسيحيين الأجانب المقيمين بالإيّالة كانوا يمارسون عباداتهم وخاصّة صلاتهم في مقارّ إقامتهم أو في الكنائس الخاصّة بذلك Les chapelles[1]. إلاّ أنّ بعثة اللّورد اكسموث Lord Exmouth[٢] سنة ١٨١٦ غيّرت كثيرا من المعطيات، فلم يعد إنجاد

1- Habib JAMOUSSI : Juifs et Chrétiens en Tunisie au 19e S. Essai d'une étude socio-culturelle des communautés non-musulmanes (1815 - 1881). p 341.

٢- إدوارد بيلاو Edward Pellew (١٧٥٧ – ١٨٣٣)، نبيل مقاطعة إكسموث Exmouth، ضابط بالبحرية البريطانية، اشتغل في البحرية الملكية خلال حروب الثورة.

العبيد سبب الوجود المسيحي بتونس، خاصّة وأنّ المنصّرين قد استقرّوا بتونس وانتقلوا إلى مهام جديدة غير التي كانت في القرن الماضي، ساعدهم في ذلك سياسة التسامح وانفتاح البلاد على المؤثرات الغربية[1].

مكّن ذلك المنصّرين من توسعة مجال عملهم في كلّ أنحاء المملكة؛ بناء الكنائس والمدارس الدينية والمستشفيات، وعن طريقها تواصلوا مع سكّان البلاد، يحدوهم في ذلك عقيدتهم الدينية وإرادتهم في نشر الثقافة الغربية حيثما حلّوا. وهو ما عبّر عنه دارمون راؤول Darmon Raoul[2] بقوله "إنّ الشّعب المستعمر لا ينتصر فقط بالسلاح، إنّه يستطيع ذلك بالتعليم والمحراث...بمسائل القلب والدّين...تتكوّن المؤسّسات الأكثر ديمومة". فرجال الدّين يعتقدون لا محالة في تفوّق حضارتهم ومركزية فكرهم المقدّس ومن ذلك تنبع رسالتهم في التنصير وموقفهم من الآخرين خاصّة المسلمين، إذ يتعلّق خطاب موريس باراس Maurice BARRES[3] التالي بالحالة التونسية "إلى كلّ قُرَانَا؛ الكنيسة وعاء الحضارة المسيحية، رمز ومركزية الأفكار العلوية في الأرض، كذلك قوى إلهية تعيننا. لكلّ كنائسنا، في الأخير، أب مقدّس يهذّب ويربي الأنفس"[4]. كان هذا الخطاب تهيئة لمؤتمر التجنيد الكهنوتي بتونس بتاريخ ١٣ – ١٧ أفريل ١٩٣٢، والذي يُعتبر تنفيذا لتوصيات المؤتمر الإفخارستي الثلاثين المنعقد بتونس سنة ١٩٣٠.

المؤتمر الإفخارستي بتونس؛ ٧ – ١١ ماي ١٩٣٠:

ما هي المؤتمرات الافخارستية Congrès Eucharistiques؟ هي مؤتمرات دينية كاثوليكية نسبة إلى إفخارستيا Eucharistie ؛ وهي كلمة يونانية تعني الشكر،

1- Voir. Abbé SUBERBIELLE : Pour le rayonnement de la pensée catholique ; œuvre nécessaire. In. La Tunisie catholique (Archidiocèse de Carthage). N° 27. Dimanche 3 juillet 1932. p 444.

٢- دارمون راؤول Darmon Raoul (١٨٨٥ – ١٩٧٦) فقيه قانوني وعميد هيئة المحامين بتونس ١٩٠٦، ومدرّس بكلية القانون بتونس ما بين ١٩٢١ و١٩٥٤. تقلّد عدة مهام علمية وإدارية فرنسية وتونسية وإيطالية.

٣- (١٨٦٢ – ١٩٢٣) كاتب وسياسي، أحد وجوه القومية الفرنسيين، محور فكره الأوّل: عبادة الأنا، ويعتبر أنّ واجبه الأوّل هو الدفاع عن ذاتيته ضد المتوحشين.
« Notre premier devoir est de défendre notre moi contre les barbares ». Maurice Barres : Sous l'œil des Barbares. La bibliothèque électronique du Québec. Collection à tous les vents. Volume 170 : version 1.0.

4- Maurice BARRES : La souscription pour le congrès. In. La Tunisie catholique (Archidiocèse de Carthage). N° 1. Dimanche 3 janvier 1932. p 13..

وإذا رفع هذا الشكر إلى الله اتّخذ شكل الصّلاة[1]. ويُقال: سر الإفخارستيا أو سرّ التناول أو القربان المقدّس. وهو أحد الأسرار السبعة المقدّسة في الكنيسة الكاثوليكية والأرثوذكسية (سرّ المعمودية، زيت الميرون، القربان المقدّس، سرّ التوبة، سرّ مسحة المرضى، سرّ الزيجة، سرّ الكهنوت). وهو تذكير بالعشاء الذي تناوله المسيح وتلاميذه عشية آلامه بحسب معتقدهم الديني. وقد عُقِد أوّل مؤتمر أفخارستي بمدينة ليل Lille الفرنسية سنة ١٨٨١ بمبادرة من إيميلي تاميزيي Emilie Tamisier (١٨٣٤-١٩١٠) تحت شعار "الإفخارستي ينقذ العالم"، وعقد المؤتمر الأخير بمدينة سيبي الفيليبينية في ٢٥ – ٣١ جانفي ٢٠١٦ تحت شعار "المسيح فيكم رجاء المجد". (الرسالة إلى أهل كولوسي، ١/٢٧).

أمّا المؤتمر الإفخارستي، محلّ بحثنا، فهو المؤتمر الثلاثين، وقد اختيرت منطقة قرطاج التونسية لعدّة أسباب دينية وسياسية، خاصّة في ظلّ صراع سياسي حاد بين الإدارة الفرنسية والإيطالية:

- المكانة الدينية لقرطاج عند المسيحيين عموما والكاثوليك خاصّة. فقد عقد بها أكثر من عشرين مجمعا دينيا منها خمس مجامع مسكونية مؤثّرة في مسيرة الكنيسة الكاثوليكية، وهي: مجمع قرطاج الأوّل ٢٥١م، مجمع قرطاج الثاني ٣٩٠م، مجمع قرطاج الثالث ٣٩٧م، مجمع قرطاج الرابع ٣٩٨م، ومجمع قرطاج الخامس ٤٠١م[2].
- تعتبر قرطاج محطّة الحرب الصليبية التاسعة وأرض هلاك القديس لويس Saint-Louis وقد خُلِّدت ذكراه في ١٠ نوفمبر ١٨٨٤ تاريخ إعادة البابا ليون الثالث عشر Léon XIII كرسي أسقفية قرطاج، وتذكيرا ببعض رموز الكنيسة مثل: القديس أوغسطين Saint Augustin والقديس قبريانوس Saint Cyprien. وقد رأت الكنيسة في بناء جامع العابدين على هضبة قرطاج قبالتها نوعا من

١- الأب صبحي حموي: معجم الإيمان المسيحي. دار المشرق، بيروت، ط ٢ / ١٩٩٨، ص ٤٩.

2- Adolphe-Charles Peltier : Dictionnaire universel et complet des conciles, vol. 13, Migne, 1847. Version numérique :https://books.google.com.sa/books?id=YsoWAAAAQAAJ&pg=PA471&redir_esc=y#v=onepage&q&f=false.

التحدي، خاصّة وأنّ انطلاق أشغال بناء الجامع كانت في ١٦ نوفمبر ٢٠٠٠ وافتتاحه يوم ١٧ رمضان ١٤٢٤ الموافق ١١ نوفمبر ٢٠٠٣. توافق في التّاريخ لم يكن مصادفة، بل له أكثر من دلالة دينية وحضارية، يجب التوقّف عندها. إنّه نوع من الجدل الصامت الذي يختزل كثيرا من العقبات والضغوط، تفسّر أقدارا من مظاهر الهيمنة وسياسة الشدّ والجذب بين طرفين متناقضين. كما لا نظنّ أنّ حضور نائب عن ملك المملكة العربية السعودية في الافتتاح الرسمي للمسجد هو حادث عرضي[١].

- أما في أعين عموم الكاثوليك فإن قرطاج ذات مكانة اعتبارية يجب أن يعبّر عنها بمؤتمر استثنائي، فَاتَهُم أن التاريخ جملة تراكمات ولا يعود إلى الخلف، وأنّ قرطاج أصبحت مسلمة منذ القرن السّابع للميلاد. وأنّ الوجود الفرنسي بتونس بحسب الاتفاقية المعلنة حماية لأسباب مالية وليس استرداد. فتونس بلد مسلم يعُدّ يومها قرابة ٢١٥٩١٥٠ نسمة مع وجود أقليات أجنبية لا تتجاوز ١٩٥٣٠٠ نسمة.
- الغطاء القانوني الذي توفّره الاتفاقية الموقّعة في روما بتاريخ ٧ نوفمبر ١٨٩٣ بين فرنسا والفاتيكان، على أنّ يُعيّن رئيس أساقفة قرطاج مباشرة من السيادة البابوية بعد موافقة الحكومة الفرنسية، والتي تمنحه دعما ماديا يقدّم فيه تقريراً عند نهاية الخدمة.

ومعلوم أنّ الإعداد للمؤتمر الإفخارستي بتونس أشرف عليه رئيس أساقفة قرطاج الذي استلم مهامه الدينية منذ سنة ١٩٢٠، واضعين في الاعتبار أنّ أليكسيس لماتري Alexis Lemaître كان رئيسا لجمعية منصري أفريقيا وقبلها المرشد العام للفيالق السودانية خلال الحرب العالمية الأولى. وهو الذي صدم الرأي العام التونسي سنة ١٩٢٥ بنصب تمثال الكاردينال لفيجري Cardinal Lavigerie وسط العاصمة في ذكرى مئويته، حاملا بيده الإنجيل، والذي فسّره التونسيون بأنّه دعوة للتنصير. وبعدها كتب الموظّف البابوي السامي أليكساندر بون Alexandre Pons "يجب

١- اليوم. صحيفة سعودية. الثلاثاء ١١ نوفمبر ٢٠٠٣، العدد ١١١٠٦، ص ٣.

الصلاة لله حتى يتنصّر المسلمين". وفي ٢٥ ديسمبر ١٩٢٧ أعلنت الصحيفة الرسمية للأسقفية أنّ المؤتمر الإفخارستي الثلاثين سيعقد بقرطاج سنة ١٩٣٠[1].

وتبرز أهمية المؤتمر في الدعم الذي حظي به من أعلى هرم الإدارة الفرنسية الرّسمية، التي تعتبره مناسبة مهمّة لإبراز دور فرنسية في تمدين الشعوب المحتلة، احتفاء بالذكرى المئوية لاحتلال الجزائر والذكرى الخمسين لاحتلال تونس. وقد حرص وزير الخارجية الفرنسي أن يمثّل المؤتمر نجاحا وطنيا قبل كل شيء. ومن صور الدّعم المادي والمعنوي:

- استقبال رئيس أساقفة قرطاج من طرف الرئيس الفرنسي ورئيس مجلس الوزراء ووزير الخارجية.

  منحة مادية تقدّر بمليوني فرنك فرنسي من الخزينة الفرنسية تحت مسمى ميزانية تونس. وهو تصرّف يتعارض وعلمانية الدولة الفرنسية كما ينصّ على ذلك قانون ١٩٠٥.
- تكفّل وزارة الحرب الفرنسية، وبطلب من رئيس المجتمع المدني ليسيان بيزو Lucien Baizeau، بالدعم البشري والمتطلبات الضرورية لاستقبال الحشود وإعاشتهم، من خلال توفير ٨٠٠ خيمة و٥٠ مطبخا متنقلاً[2].

أثارت كلّ تلك الإجراءات، والتي تلاها عقد المؤتمر الإفخارستي ردّة فعل قوية في الشارع التونسي، النُخب المثقّفة والعامّة، كما القيادات السياسية ورموز الحركة الوطنية، بدءا بالحركة الطلاّبية؛ طلبة جامع الزيتونة، الصادقية، العلوية، ومعهد كارنو. كما وجد الدستوريون دعما كبيرا من شيخ الإسلام والمفتي العام

1- La première annonce du Congrès « Sa Grandeur Monseigneur l'Archevêque de Carthage, Primat d'Afrique, nous annonce une grande nouvelle. Sa Grandeur avait exprimé le désir que le trentième Congrès Eucharistique International fût tenu à Carthage en 1930.
Le comité permanent de ces Congrès internationaux a donné un avis favorable. Le Saint Père, juge en dernier ressort, vient de décider que le premier Congrès Eucharistique International tenu en Afrique, aurait lieu à Carthage, en 1930 ». In, La Tunisie catholique (Archidiocèse de Carthage), N° 46, Dimanche 25 Décembre 1927.

2- François ARNOULET : Interférences diplomatiques et préoccupations politiques à l'occasion du congrès eucharistique de Carthage (Mai 1930), In, Revus d'histoire maghrébine, Ceromdi, Zaghouan, 18e année, N° 61 – 62, juillet 1991, p10.

الذين رفضوا المشاركة في الرابطة الشرفية. هذا إلى جانب عديد المقالات الصحفية، مثل مقال الشاذلي الخلاّدي باسم مستعار "عبد الحق" بصحيفة "صوت تونس"، ثم مقال الحبيب بورقيبة بنفس الصحيفة، بيّن فيه أنّ مسلماً لا يتقبّل صورة الله في خبر مكسّر مغمس في الخمر. مذكّراً "أنّ همّ الدّفاع عن الإسلام هو السبب الذي دفعني للانخراط في العمل السياسي. فسياسة الاحتلال لا تهدف فقط لتدمير السيادة التونسية بل الدين الإسلامي. كان لدي شعور لو قُدِّر للأحداث أن تُتابع مسيرها لحُكِم على الإسلام بالزوال من تونس". لقد وُجِّهت هذه الرّسالة للرأي العام التونسي على هامش أحداث ١٩٦١ خلال الأزمة الحادة بين تونس وفرنسا قصد الرّبط بين قوى الاحتلال الفرنسي والمسيحية الوافدة من الغرب.

مثّل، إذا، المؤتمر الإفخارستي أكثر من مجرّد تظاهرة دينية عرضية، بل اعتبر تحديا للهوية الحضارية التونسية، يُفهم من سياق كلام اللّجنة الدائمة للمؤتمرات الإفخارستية العالمية، الذي جاء فيه في معرض ذكر أهمية قرطاج عند المسيحيين عامّة: "...أنّها خاصّة أقدم كنيسة بإفريقيا، كما نوّه القديس ليون التاسع Léon IX بعدد شهدائها بمجد تقاليدها، فهي مدينة عظماء الكنيسة والشاطئ الذي مشى عليه القديس أوغسطين ونزل به بعده الملك الفرنسي لويس التاسع في قيادة للحرب الصليبية"[1]. وبالفعل كان المؤتمر قاعدة تأسيسية لما بعده.

مؤتمر التجنيد[٢] الكهنوتي بتونس؛ ١٣ – ١٧ أفريل ١٩٣٢:

يُعتبر المؤتمر نقطة تحوّل مفصلي في تاريخ الكنيسة بتونس وتنفيذا لتوصيات المؤتمر الإفخارستي التّاريخي بتونس[٣]. وهو مشروع استراتيجي

1- Comité permanent des congrès Eucharistiques Internationaux : Ce que l'on voit à Carthage « c'est surtout, pour les chrétiens, la vieille église primatiale d'Afrique, celle dont Saint Léon IX a pu dire que, pour le nombre de ses martyres, la gloire de ses traditions, elle ne le cédait point à l'église romaine. C'est la ville de Tertullien et de Cyprien, de Perpétue et de Félicite. C'est la plage d'où partit furtivement Augustin, l'enfant des pleurs, et ou débarqua plus tard, croisé de rouge, le roi Louis IX de France ». Carthage 1930 – Actes et Documents. Edition de La Tunisie Catholique, Tunis 1931, p 22.

٢- يمكن استعمال مصطلح التعبئة.

٣- عُقِد المؤتمر الافخارستي بقرطاج في ٧ – ١١ ماي ١٩٣٠ باعتبارها عاصمة قديمة للمسيحية بشمال إفريقيا، وتزامن انعقاد المؤتمر مع الاحتفال بالذكرى المائوية للاحتلال الفرنسي للجزائر ١٨٣٠ وإصدار الظهير البربري بالمملكة المغربية ١٩٣٠. وتكمن أهمية المؤتمر بالنسبة لمنظميه في رمزيته تذكيرا بالحملة الصليبية على تونس سنة ١٢٧٠ بقيادة لويس التاسع عشر.

هدفه تكوين إطارات دينية تونسية غير وافدة، بمعنى آخر المرور من طور الاعتماد على الإطارات الدينية الكنسية المتّصلة بالبعثات الأجنبية إلى التأسيس لأجهزة دينية كنسية محلية يقوم عليها كهنة من أهل البلاد الأصليين Les indigènes. وفي تقديرنا في ذلك إشارة خفية استباقية لإمكانية فشل مشروع الاحتلال الفرنسي مستقبلا والاستعداد "للاستثناء" قبل فوات الأوان، وهو ما يمكن ملاحظته من خلال قراءة أولية لفقرات برنامج المؤتمر:

أ طبيعة الشخصيات المحاضِرة بحسب المجلّة[1]:

- رئيس أساقفة كنيسة قرطاج
- أسقف قرطبة
- قس؛ دكتوراه في اللاّهوت، دكتوراه في الفلسفة، رئيس المدرسة الإكليركية بتونس
- أب، ناظر المدرسة الإكليركية بالمرسى، مدير التجنيد الكهنوتي بتونس.
- أب، دكتوراه في اللاّهوت ودكتوراه في الفلسفة، أستاذ ومدير المدرسة الإكليركية بالمرسى.
- قس، مرشد معهد تونس.

كاهن أسقفية باريس.

- حبر، نائب أسقفي بفرساي، ضابط التاج الإيطالي، صاعب عديد المؤلّفات المتخصّصة.
- محام دفاع بسوسة، رئيس مؤتمر، متحصل على وسام الاستحقاق البابوي.
- رجل آداب محاضر، مدير مجلّة الآداب، مؤسس وكاتب عام "أسبوع الكتّاب الكاثوليك"، خطيب مفوّه وكاتب عجيب.

ملحّن ومنظّم ورئيس جوقة كاتدرائية تونس.

يلاحظ في المحاضرين:

1- Le 1er congrès de recrutement sacerdotal tunisien à Tunis les 14, 15, 16 et 17 avril 1932. In. La Tunisie catholique (Archidiocèse de Carthage), N° 14, Dimanche 3 avril 1932, p 230.

- تغطية الاختصاصات لمختلف المجالات الدينية والعلمية والأدبية والقانونية والشبابية والطبية،
- يعتبرون نخبة رجال الكنيسة من الإطارات الدينية والمنتمين إليها؛ المتدينين أو الموافقين لتوجهات وسياساتها،
- انتمائهم لمؤسسات عريقة مشهورة،
- دورهم الفاعل والمحدّد في سياسات الدّولة الفرنسية،
- قدرهم على التوجيه الفكري وتشكيل وعي المتابعين.

ب برنامج المؤتمر:

فقرات من اليوم الأوّل:

- تجمّع الصليبيين؛ أطفال وشباب، في حديقة البلفدير
- عرض فيلم حول التجنيد الكهنوتي؛ خاص بالصليبيين؛ أطفال وشباب مؤتمرين.
- محاضرة: عظمة ورفعة الكهنة.
- عرض فيلم

فقرات من اليوم الثّاني:

- التجنيد التونسي: الوضعية الحالية، الشروط، الأهداف والمناهج.
- تقارير وبيانات متعلّقة بالمؤتمر والدعاية اللاّحقة.
- تقرير حول: التجنيد في التعليم
- تقرير حول: المبادرون للتجنيد الكهنوتي؛ التاريخ ووثائق الحملات الأولى بفرنسا.

فقرات من اليوم الثّالث:

- التعبئة الكهنوتية بصَلاَة الأنفس الخالصة لله
- ماذا يعني قس؛ الحياة المشرقة: تضحية، إخلاص، رسالة.

فقرات من اليوم الرّابع:

- القساوسة في الأحياء.
- الأثر الكهنوتي على الحياة الفكرية.

ممّا يلاحظ:

- وضوح هدف المؤتمر منذ البداية،
- استهداف فقرات المؤتمر قضية واحدة: تجنيد إطارات دينية من السكّان الأصليين Les indigènes،
- هيمنة تخوّف غير معلن من عدم نجاح المهمّة، يَظهر ذلك من خلال الهالة التي حفّت بالمؤتمر وطبعته؛ إعلاميا وسياسيا وأمنيا واحتفاليا.

ج هل المؤتمر نتيجة أم نقطة تحوّل؟:

يبدو وأنّ التنصير بتونس خلال القرن التاسع عشر شجّعته تشريعات تونسية إيجابية لاستقرار دائم تعاضدها سياسة متسامحة مهّدت السبيل لمختلف الكنائس للقيام بأنشطتها الدينية بلا مشقّة في كلّ الاتّجاهات، ولعلّ انعقاد المؤتمر الإفخارستي بقرطاج ليس دليلا على عجز الدّولة التونسية عن حماية مقدّساتها فحسب، بل يكشف عن غياب تام لمؤسسات الدّولة وأيلولة الأمر للسلطة العسكرية الفرنسية المهيمنة، لذلك شاع في أوساط الكنيسة استعمال تسمية La Tunisie française [1] بدلاً من تونس استنانا بمصطلح L'Algérie française.

1- La Tunisie française. In. La Tunisie catholique (Archidiocèse de Carthage). N° 6. Dimanche 7 février 1932. p 94. « Nous avons lu ces jours-ci avec un vif intérêt les premiers numéros de la « Tunisie Française »…quotidien indépendant du soi. joue en Tunisie un rôle indispensable; pour défendre. comme dit son nouveau directeur dans son article-programme. dans la tradition de sa politique passé. les principes d'ordre et d'autorité. et les droits de la France en Tunisie. pour la sauvegarde des intérêts matériels et moraux de tous ceux qui vivent en ce pays sous la protection de la France…Nul n'était plus qualifie que M. de la porte pour assumer cette noble et difficile tâche. pour présenter. comme il le dit encore. « les idées françaises et l'esprit – si possible en langue française – et même nous le savons. dans une très jolie langue française…
La Tunisie Catholique qui a de commun avec la Tunisie Française. non seulement son imprimerie. mais aussi quelques idées. souhaite à son grand confrère quotidien la plus grande diffusion.

ولو ألقينا نظرة سريعة على قائمة الكنائس ودُور العبادة التي تقام فيها الصلوات والتظاهرات الدينية المسيحية بالعاصمة فقط لتبيّن حجم تمكّن الكنيسة وقدرتها على بسط هيمنتها لما تتمتّع به من دعم سياسي وقانوني ومادي من الإدارة العسكرية الفرنسية بتونس، لم لا والكنيسة تبارك الجنود وتوسّمهم وتؤبّنهم، وتستوعبهم في مدارس دينية[1] وتعيّنهم في مناصب دينية، وهو مخالف صراحة لتعاليم المسيحية الهادفة لبسط السلام ومعارضة الحرب وإدانة القتل[2]. فمثلا في تقديمها لأحد المحاضرين القادمين من خارج تونس، كتبت الصحيفة: ر. ب. بيشو R. P. Béchaux ينتمي إلى الدومنيكان الذين انخرط فيهم بعد حصوله على درجة الدكتوراه في القانون، ومُنح لأجلها جائزة الأكاديمية الفرنسية، وكانت بعنوان "المسألة الزراعية في إيرلندا في بدايات القرن العشرين". ويلاحظ أنّه أدى واجبه بكلّ شجاعة خلال الحرب، لقد جُرِح ووسِّم بصليب الحرب"[3].

وما يمكن الإشارة إليه في هذا السياق، تعدّد الكنائس و"بيوت الصلاة" وتغطيتها لعديد أحياء وضواحي العاصمة، فضلا عن انتشارها في مدن تونسية أخرى، كما سنبيّن ذلك لاحقاً.

- Carthage،
- Cathédrale de Tunis،
- Paroisse de St-croix،
- Notre Dame du Rosaile،
- Paroisse de Sacré-Cœur،

1- Nouvelles de Gabes : « …Depuis un mois، M. le Curé a loué à Gabes près de l'église un local qui lui servent des salles de catéchisme…Déjà une vingtaine de soldats، dont deux séminaristes، y viennent régulièrement ». In، La Tunisie catholique (Archidiocèse de Carthage)، N° 11، Dimanche 15 mars 1932، p 178.

2- Une Messe sera dite tous les mois à Lourdes pour la paix : S. Exs. Mgr Gerlier a décidé qu'une messe mensuelle serait dite chaque premier samedi du mois à la Grotte de Lourdes. Voici dans quels termes il annonce cette décision : « Le monde entier aspire à la paix. Il la poursuit d'une volonté ardente... ». In، La Tunisie catholique (Archidiocèse de Carthage)، N° 3، Dimanche 17 janvier 1932، p35.

3- Au pays du soleil de minuit. In، La Tunisie catholique (Archidiocèse de Carthage)، N° 3، Dimanche17 janvier 1932، p30.

- Paroisse St-Joseph.
- Paroisse Jeanne D'Arc.
- Paroisse de la Goulette.
- Paroisse N-D des victoires Bellevue-Tunis.
- La Marsa.
- Le Bardo[1].

ولا غرابة إذا أن يُعلِن رئيس أساقفة كنيسة قرطاج في رسالته "أكثر فأكثر، بفضل عمل غير منقطع، بحيث لم ندّخر وقتا ولا تعبا، حُقَّ لنا أن نعبّر عاليا عن رضانا وسرورنا، فمسألة تجنيد كاهن؛ مولود من هذه البلاد، يعتبر من الآن فصاعدا أمر واقع في تونس...خطباء وأدباء من الدرجة الأولى، من فرنسا ومن تونس، يأتون لتقوية الحركة التي قد انطلقت، مبتدئين بالوسائل الحديثة الأكثر فاعلية، من أجل غزو الرأي العام"[2]. معقّبا على ذلك بصلاة دعا الله فيها أن يمدّهم بقساوسة لتونس[3].

من الممكن في هذا المستوى من البحث، أن نعتبر المؤتمر نتيجة لمرحلة التأسيس السّابقة من خلال الاستفادة من ضعف الدّولة التونسية المكبّلة بالاحتلال الفرنسي وهشاشة التشريعات. وبالمقابل تُخضع الكنيسة كل مشاريعها وتصرّفاتها لدراسات علمية دقيقة، وتحرص على ضبطها قانونيا؛ تكليف أحد طلاّبها بإعداد رسالة دكتوراه لتكييف الوضع القانوني للمرتدين عنوانها: التحوّل إلى المسيحية من مواطن جزائري مسلم وآثاره القانونية.

La conversion au christianisme de l'indigène musulman algérien et ses effets juridiques. Un cas de conflit colonial : P. Bonnichon (Jésuite).

1- Offices. In. La Tunisie catholique (Archidiocèse de Carthage). N° 39. Dimanche 6 novembre 1932. p 627.
2- Lettre de S. G. Mgr l'Archevêque. Primat d'Afrique annonçant un premier congrès de recrutement sacerdotal Tunisien. qui se tiendra à Tunis. la 3e semaine après Pâques du 13 au 17 Avril prochain inclus . In. La Tunisie catholique (Archidiocèse de Carthage). N° 1. Dimanche 3 janvier 1932. p 4.
3- Ibid. p 5.

Faculté de droit de Paris. Le 6 novembre 1932 [1].

وفي سنة ١٩٣٥ نشر الأسقف ألكسيس لماتر Alexis Lemaître رسالة بابوية تحت عنوان "Quinze ans de vie catholique en Tunisie" حوصل فيها تقييمه لتجربة خلال خمسة عشرة سنة منذ توليه كرسي أسقفية قرطاج، ورؤية للمشهد الكاثوليكي بتونس. إذ يعتبر الكاثوليك أمة منغلقة على ذاتها، لم تستفد من الوضعية القانونية المميّزة بفضل الحماية الفرنسية وكذلك دعم الحكومة منذ ١٨٩٣[2].

تطوّر نسق الحركة التنصيرية بتونس:

يرتقي النشاط التنصيري بتونس إلى القرن الثالث عشر، عندما أبرم ملك فرنسا فيليب Philipe III في ٢٨ أكتوبر ١٢٧٠ اتّفاقا مع الخليفة الحفصي أبي عبد الله المستنصر، يسمح للنسّاك المسيحيين بتشييد مساكن وبناء كنائس للصلاة، ودفن موتاهم، ويخطبون داخل كنائسهم ويُصلّون بصوت مرتفع.

وفي ٢٠ أفريل ١٦٢٤ قرّر تجمّع نشر الإيمان[٣] La congrégation pour la propagande de la foi إرسال بعثة الرّهبنة الكبوشية[٤] Frères mineurs Capucins إلى تونس مهمّتها: تحرير الرهائن من بؤس العبودية واسترجاعهم من أرض الملاحدة. وكانت تعليمات الكنيسة الكاثوليكية بروما صارمة للبعثة بأن لا تتجاوز مهمّتها حدود إقامة القدّاس في كنائس الصلاة "لتسلية وتعزية العبيد الكاثوليك"، الذين فقدوا معنى الألوهية والرّوح والمسيحية واعتنقوا الإسلام[5].

1- Ibid. p 19.

2- Pierre Soumille : Michel LELONG : La rencontre entre l'Eglise catholique et l'Islam en Tunisie de 1930 à 1968. In. Revu de l'Occident musulman et de la Méditerranée. N° 12. 1972. pp. 165170-. Version numérique : http://remmm.revues.org/persee-178954. « Il s'agit d'une communauté qui vit repliée sur elle-même. qui ne prend pas au sérieux le nationalisme Tunisien et qui bénéficie. grâce au protectorat français d'une situation juridique avantageuse : subvention gouvernementale depuis 1893. personnalité civile depuis 1933 ». p168.

٣- شعبة من الإدارة البابوية مكلّفة بنشر التعاليم المسيحية وإدارة شؤون الكنيسة في البلاد غير المسيحية. وفي ١٩٨٢ غير البابا يوحنا بولس الثاني التسمية إلى تجمّع تبشير الشعوب Congrégation pour l'évangélisation des peuples.

٤- رهبنة كاثوليكية تأسست سنة ١٥٢٥ وتعتبر تيارا إصلاحيا ضمن الرهبان الفرنسيسكان، واستقلّت عنهم سنة ١٦١٩.

5- A. S. C. P. F. vol. 10. doc. 224. lettre du Préfet Settimo da Montalboldo. le 1 janvier 1804. Source ; H. JAMOUSSI : Juifs et Chrétiens en Tunisie au 19e S. p 346.

تطلّبت تلك الوضعية إعلان النفير العام لتجميع الأموال وتشجيع المسيحيين خاصّة بالعاصمة، واعتماد تقليد حافظت عليه الكنيسة يتمثّل في الإعلان الدوري عن الأرصدة التي تمّ تجميعها[1] وإشهار أسماء المتبرّعين[2]، قصد تحفيزهم وتركهم في حالة استنفار دائم خدمة للتنصير بتونس، تحت مسميات كثيرة ومتعدّدة[3].

والملفت للنّظر، أنّ بعثة الرّهبنة الكبوشية ذات الأصول الإيطالية تمتّعت بالحماية الفرنسية، بل أنّ المادة ١٩ معاهدة ٣٠ أوت ١٦٨٥ تعتبر: أنّ الآباء الكبوشيين ومتدينين منصرين آخرين بتونس، من أيّ أمّة كانوا، سيعاملون من تاريخه ويعتبرون كموضوع خاصّة بإمبراطور فرنسا، والذي سيتكفّل بحمايتهم. وبناء عليه يعيشون تحت حماية قنصل فرنسا، مستعملين كنيسة الفندق Fonduq الخاصّة بالفرنسيين إلى حين حصولهم على كنيسة خاصّة بهم في ١٧٣٥ في بيت استأجروه من تونسي. وفي ١٨٣٧ اتّسع مجال نفوذ البعثة لتهيمن لاحقا على مستشفى الآباء الثالوثيين[٤] Hôpital des Trinitaires. وبذلك يختفي مطلقا الآباء الثالوثيين الذين استقروا بتونس منذ ١٧٢٠ حين أَذن لهم حسين باي بتأسيس المستشفى لمداواة العبيد. وقد قام على إدارته منذ التأسيس ب. إكزسمانس .P Ximens من أصول إسبانية.

عاشت، إذا، هذه البعثة تحت حماية قنصل فرنسا، والذي تكفّل بالدّفاع عنها لدى السلطة المحلية، ويؤمّن لها المال عند الحاجة، كما يقوم بدور الناطق الرّسمي للبعثة لدى الحكومة الفرنسية وكذلك لدى تجمّع نشر الإيمان. إلاّ أنّه ونتيجة للتململ في صفوف أفراد هذه البعثة نتيجة الهيمنة المطلقة لقنصل فرنسا،

1- Cent mille francs par an pour les pauvres. In. La Tunisie catholique (Archidiocèse de Carthage). N° 8. Dimanche 21 février 1932. p 126.

2- Suite des souscriptions. In. La Tunisie catholique (Archidiocèse de Carthage). N° 45. Dimanche 18 décembre 1932. p 726.

3- Une quête sera faite au profit des sinistrés de Tunisie par la jeunesse Catholique. In. La Tunisie catholique (Archidiocèse de Carthage). N° 3. Dimanche 17 janvier 1932. p30.

٤- الآباء الثالوثيين؛ رهبانية كاثوليكية أسسها سنة ١١٩٤ الفرنسيان القديس يوحنا دي ماتا Saint Jean de Matha (١١٦٠ – ١٢١٣) والقديس فيليكس دي فلوا Félix de Valois (١١٢٢ – ١٢١٢). وأصل نشأتها كما ورد في تاريخ تأسيسها؛ لأجل إنقاذ المسيحيين من العرب. وتعتبر أقدم مؤسسة رسمية تابعة للكنيسة الكاثوليكية، فقد حديثا إشعاعها، أمام تناقص أعضائها، ولم يعد دورها مهما، لانعدام المسيحيين المضطهدين، لذلك ينحصر نشاطها عموما في فرنسا في مساعدة فاقدي السكن القار، كما لهم نشاط في بعض الدّول الآسيوية وأمريكا اللاتينية. Hierholz Grimaldi R : Les Trinitaires. Fayard. Paris ١٩٩٥.

وكذلك لتضارب المصالح الفرنسية الإيطالية، اتّجهت الإدارة الفرنسية بالتعاون مع الكنيسة للاستغناء عن أعضاء بعثة الرهبنة الكبوشية Frères mineurs Capucins من أصول إيطالية من خلال مضاعفة أعداد المنصرين الفرنسيين في إطار نفس البعثة قصد الهيمنة عليها وتوجيهها، وكذلك تكثيف عدد البعثات الكنسية الفرنسية، مثل: أخوات القديس يوسف Les sœurs de Saint-Joseph de l'Apparition والآباء البيض Les Pères blancs[1].

الكنيسة بتونس:

انخرطت في العمل الكنسي بتونس العديد من البعثات الكنسية الأجنبية، ولكن رغم اختلاف انتمائها الجغرافي وولائها الديني والسياسي، فإنّها متّفقة حول التوجّه الرئيسي لمهامها الوظيفية الدينية. ومن تلك الكنائس:

- بعثة الرهبنة الكبوشية Frères mineurs Capucins.
- كنيسة الآباء الثالوثيين L'ordre des Trinitaires.
- الكنيسة الأرثوذكسية L'Eglise Orthodoxe. تواجدت بتونس منذ القرن السادس عشر لخدمة بعض عمّال الصيد البحري من أصول يونانية. وقد تمتّعوا عموما بحرية واسعة حتى بعد عام ١٨٢٧ تاريخ استقلال اليونان.
- الكنائس الاصلاحية البروتستانتية Les Eglises réformées؛ لم تتواجد منها بتونس إلى حدود القرن التاسع عشر إلاّ الكنيسة الأنغليكانية، والتي كانت ممثّلة بتونس منذ القرن السّابع عشر في شخص كاهن إنجليزي غير مستقر. وفي حدود سنة ١٨٥٥ لم يتعدى أتباع الكنائس الإصلاحية مجتمعين المائة، وبحكم إقامتهم للقدّاس باللّغة الإنجليزية فقد كانوا يجتمعون عند القنصل الأمريكي. وبوفاة القس بعد إصابته بمرض الكوليرا لم يوجد من يعوّضه. وتحت رعاية جمعية الإرساليات الأنغليكانية قدمت جمعية يهود لندن London Jews Society

١- وفعلا تمّ ذلك نهائيا بتولي شارل لفيجري Charles Lavigerie الإدارة الرسولية ومنصب رئيس أساقفة قرطاج ١٨٨١ – ١٨٩٢، وقد تزامن ذلك مع إمضاء اتفاقية باردو وبسط الهيمنة الفرنسية، بعدما توالى على المنصب تسعة إيطاليين بداية من ستيمو دا مونتالبولدو Settimo da Montalboldo ١٨٠١ – ١٨٠٧ وانتهاء بالأسقف فيدال سيتار Fedel Sutter ١٨٤٤ – ١٨٨١.

لرعاية يهود تونس وصيانة المدارس التي فتحت منذ ١٨٧٥. ولذلك اعتبرت هذه البعثة المنافس الوحيد للبعثة الكبوشية إلى حين وصول الآباء البيض في ١٨٧٨.

وعموماً نجد أن البعثة الكبوشية أسست قرابة ٩ كنائس، أضاف إليها الكاردينال لافيجري ١٤. وبحلول الاستقلال سنة ١٩٥٦ توجد قرابة ٧٨ دائرة رعوية Paroisses ولو أضفنا إليها المصلّيات التي تقام فيها العبادة بصفة مستمرّة يصل مجموع ذلك ١٨٠، يقوم على خدمتها رجال دين فرنسيين في أغلبهم. ومن تلك الكنائس:

- كنيسة سوسة ١٨٣٦
- كنيسة Sainte Croix بتونس العاصمة ١٨٣٧
- كنيسة حلق الوادي ١٨٣٨
- كنيسة صفاقس ١٨٤١
- كنيسة جربة ١٨٤٨
- كنيسة المهدية ١٨٤٨
- كنيسة بنزرت ١٨٥١
- كنيسة Porto Farina ١٨٥٣ غار الملح حاليا.
- كنيسة المنستير ١٨٦٣...
- بيت جديد للآباء البيض، نهج جامع الهواء بالعاصمة، الافتتاح يوم السبت ٧ ماي ١٩٣٢، بحضور شخصيات رسمية وأدبية فرنسية وتونسية[1].

تقدّم دورية La Tunisie catholique تقارير تفصيلية منتظمة حول نشاط الكنائس والمصلّيات والجمعيات والمنظّمات والبعثات...المسيحية على اختلاف انتماءاتها الكنسية. ومن الملفت للنّظر حرص تلك التغطية الإعلامية على اعتبار تلك الأنشطة تظاهرات وطنية يُعدّها وينظّمها وينشّطها ويحضرها تونسيون، حتى لكأنّ

1- L'inauguration de la nouvelle maison des pères blancs à Tunis. In. La Tunisie catholique (Archidiocèse de Carthage). N° 20. Dimanche 15 Mai 1932. p 344.

تونس تحوّلت عن دينها الإسلامي لتصبح مسيحية، أمرا مسلَّمٌ به. يمكن ملاحظة ذلك مثلا من خلال:

١- **تكثيف النشاط التنصيري:** فقد أوردت المجلّة مقالا بعنوان: أخبار فيريفيل Nouvelles de Ferryville:

- الإرسالية الإيطالية عرف نشاطها نجاحا كبيرا في فندق الجديد واختتمت حملتها في فيريفيل Ferryville لتواصل عملها في بنزرت وتينجة Tindja.
- حلّت الإرسالية الفرنسية مكان الإرسالية الإيطالية في فيريفيل Ferryville بقيادة الرّاهب آرون M. l'abbé Arendl راعي كنيسة سوق الخميس، وذلك من الأحد ١٣ إلى الأحد ٢٠.
- الخميس ١٠ Directeur diocésain de la Croisade يزور فيريفيل Ferryville لمراقبة فريق الصغيرات، الذين اجتمع معهم يوم ٦ مارس في المدرّج، وتسهر عليهن Les Sœurs de Sacré-Cœur[1].

٢- **التظاهرات الاحتفالية:** نشرت المجلّة مقالا تحت عنوان Pour avoir nos Prêtres جاء فيه: الجمع الغفير الذي ملأ كنائس مدننا، والمسيحيين المنتشرين في البلاد، والأجراس التي تبارك حصادهم، يبدو أنّه مفهوم جداً.

ثمّ عقّبت المجلّة حول خطباء مؤتمر التعبئة الكهنوتي: لكنّ أغلبهم معروفين لدى الجمهور التونسي[2].

مدارس البعثات الكنسية بتونس:

- متوسطة سان لويس St-Louis-St-Charles سنة ١٨٨٠ على مرتفع قرطاج بيرصة Byrsa ونتيجة لعدّة صعوبات تمّ نقلها إلى وسط العاصمة سنة ١٨٨٢ بشارع البحرية سابقاً والحبيب بورقيبة حالياً. وفي ١٨٨٩ ونتيجة لفشل المشروع باعه الكردينال لافيجري المؤسسة إلى الحكومة التونسية.

1- Nouvelles de FERRYVILLE. In. La Tunisie catholique (Archidiocèse de Carthage). N° 13. Dimanche 27 Mars 1932. p 192.

2- Pour avoir nos Prêtres. In. La Tunisie catholique (Archidiocèse de Carthage). N° 16. Dimanche 17 Avril 1932. p 256.

- مدرسة Sainte-Marie بصفاقس سنة ١٨٨٢ وفي سنة ١٨٨٣ ألحقت المؤسسة بالتعليم العمومي.
- مدرسة Sainte-Marie بسوسة سنة ١٨٨٣ وتوقّف في سنة ١٨٨٥، وفي سنة ١٨٨٦ ألحقت المؤسسة بالتعليم العمومي.
- مدرسة Sainte-Marie بتونس.
- مدرسة Notre-Dame-de-Sion بتونس سنة ١٨٨٢.

مدارس تسيّرها بعثة أخوات القديس يوسف Les sœurs de Saint Joseph:

- المدرسة الابتدائية المختلطة بالمنستير سنة ١٨٨٢. تقع في عمارة مهجورة تعرف بدار الباي، وقد تمّ تأجيرها بوساطة من المقيم العام الفرنسي بتونس بحسب رسالة مؤرّخة بتاريخ ١٩ سبتمبر ١٨٨٢[1].
- مدرسة البنات بالمهدية؛ سنة ١٨٨٢، تهتم بالنبات ما دون سنّ السّابعة. تدرّس مبادئ اللّغة الفرنسية ومبادئ الحساب ومدخل تاريخي وجغرافي ومبادئ فنّ الخياطة. ثمّ ألحق بالمدرسة مأوى للبنات الصغار الفقيرات.
- مدرسة البنات ببنزرت؛ سنة ١٨٨٢.

مدارس تسيّرها الأخوات البيض:

- مدرسة البنات بالمرسى سنة ١٨٨٢.
- مدرسة البنات بباجة سنة ١٨٨٣، ثمّ الحق بها مستوصف، ثم أغلقت في ١٨٨٥. وفي ١٨٩٠ أقامت البعثة مدرسة ابتدائية بمنطقة Porto Farina غار الملح حالياً.
- مدرسة Sainte-Monique بقرطاج سنة ١٨٨٥[2].

ومن المدارس الحديثة:

1- A. N. T. Série historique. Cart 64. Dos 764. Doc 24 et 25.

٢- لمزيد من التفاصيل، انظر:
Samia Nabli : L'œuvre du cardinal Lavigerie en Tunisie (1875 - 1891). Mémoire en vue de l'obtention du Mastère en histoire contemporaine. Sous la direction de Mr. Hassine Raouf Hamza & Mme. Latifa Lakhdhar. Université de Tunis. Faculté des sciences humaines et sociales de Tunis. Session Mars 2014.

- Institut Saint-Joseph
- Ecole des frères
- Sacré-Cœur
- Ecole Jeanne-d'Arc
- Pensionnat N-D Auxiliatrice
- N-D de Sion

المؤسسات الصحية وشبه الصحية الكنسية بتونس:

- Les sœurs Norbertines de Tabarka، إرسالية مسيحية تعمل في المجال الصحي في أوساط المسلمين. يعتبر المقال توثيق تفصيلي لعمل الإرسالية وطبيعة الحالات التي تعترضهم في المستوصف[1].
- Sainte-Croix
- Orphelinat Margherita di Savcia
- Orphelinat Sainte-Monique
- Maison des Sœurs Blanches
- Orphelinat Regina Elena
- Pensionnat
- Notre-Dame (Sousse)
- Le groupe « Guy de Fontgalland » (Sfax)
- Le groupe « Guy de Fontgalland » (Tabarka)
- Crétéville.[2]

1- Les sœurs Norbertines de Tabarka. In. La Tunisie catholique (Archidiocèse de Carthage). N° 32. Dimanche 11 Septembre 1932. p 511. « En voyant défiler tous ces malades. nous nous rendons compte de l'état misérable de la santé de ces pauvres indigènes. La jeunesse surtout nous fait pitié. Les jeunes filles. en particulier. et les enfants. sont profondément anémiés et offrent peu de résistance à la tuberculose… ».

2- Citations. In. LES PALMES de Carthage. Supplément à La Tunisie catholique. N° 12. Mars 1932. p 2.

ومن المهم الإشارة في هذا الصدد إلى المضمون الإيماني الذي تريد الإرساليات تمريره في طيات العمل الإنساني، من ذلك مثلا خطاب مرشد الأسقفية هارفي بازان

M. HERVE BAZIN : Le travail à faire «…Chers enfants de la Croisade. chers Cadets et Cadettes. vous savez bien que pour les décider. il faut une grâce spéciale de Dieu. Vous savez aussi que vos prières et vos sacrifices peuvent obtenir de la miséricorde de Dieu cette grâce nécessaire : vous n'auriez pas encore compris l'esprit de la Croisade si vous ne saviez pas cela. Mais vous le savez. Vous surtout. les petits. car il y a des choses que Notre-Seigneur confie surtout aux petits…p 6.

- Petites sœurs des pauvres[1].

الهيئات الشبابية المسيحية بتونس:

- La Joyeuses-Union de Tunis، تعمل في أوساط الشباب[2].

- **الشباب الكاثوليكي:**

- اتّحاد الكاثوليك L'Union des catholiques: هيئة مركزية تضمّ كل أنشطة وأعمال الشباب في تونس[3].

- La mission de M. L'Abbé CLAVE، تعمل في منطقة قعفور، تضم قرابة ٤٠ شاباً[4].

- فدرالية الشبيبة الكاثوليكية Fédération de la jeunesse masculine catholique[5].

- **نقابة عمّال السكك الحديدية:**

- Groupe des cheminots Catholiques، تعمل في منطقة قعفور وتضمّ قرابة ٣٥ عاملا بالسكك الحديدية[6].

- **الكشافة:**

تعتبر الكشافة الفرنسية من جملة روافد الكنيسة النشطة، لدورها في تأطير الشباب، كما اجتهدت في استيعاب الشباب التونسي في مختلف أطرها وتشريكه في جملة أنشطتها المدروسة[7]. من ذلك مثلا ما أشارت إليه مجلّة La Tunisie

1- Le Cinquantenaire de l'Etablissement des petites sœurs des pauvres. In. La Tunisie catholique (Archidiocèse de Carthage). N° 23. Dimanche 5 juin 1932. p 383.
2- La Joyeuses-Union de Tunis. In. La Tunisie catholique (Archidiocèse de Carthage). N° 31. Dimanche 28 Août 1932. p 495.
3- L'Union des Catholiques prend corps…et esprit. In. La Tunisie catholique (Archidiocèse de Carthage). N° 23. Dimanche 5 juin 1932. p 385.
4- GAFOUR : La mission de M. L'ABBE CLAVE. In. La Tunisie catholique (Archidiocèse de Carthage). N° 31. Dimanche 17 Janvier 1932. p 32.
5- Fédération de la jeunesse masculine catholique. In. La Tunisie catholique (Archidiocèse de Carthage). N° 45. Dimanche 18 décembre 1932. p 724.
6- GAFOUR : La mission de M. L'ABBE CLAVE. In. La Tunisie catholique (Archidiocèse de Carthage). N° 31. Dimanche 17 Janvier 1932. p 32.
7- Enfin. In. LE FOULARD ORANGE (Bulletin des scouts de France pour la province de Tunisie). N° 1. Dimanche 20 Mars 1932. p 1.

Catholique: البعد الروحي المسيحي لرسالة الكشافة؛

« D'abord l'esprit chrétien : ……M. l'abbé Labbe (le vicaire de Sfax) fait ensuite une causerie spirituelle fort intéressante, qui fait écho dans le cœur enflammé de nos jeunes Scouts[1] ».

- **العمل الخيري والإغاثي:**
- أخوات القديس يوسف Les sœurs de S. Joseph، نهج سيدي صابر. تنظّم سوق خيرية لفائدة الفقراء.
- Les sœurs de NEVERS، ساحة سيدي عبد العزيز. تنظّم سوق خيرية بحضور رئيس أساقفة تونس. بالمكان المخصّص للصليبية توجد كتب وأشياء للبيع[2].
- Les petites sœurs des pauvres، بعثة استقرّت بتونس منذ ١٨٨٢ تعمل في الوسط النسوي التونسي[3].
- Les Dames de charité à N-D. du Rosaire، تعمل في أوساط الفقراء بالأرياف التونسية[4].
- أخوات صهيون Les sœurs de Sion: الاحتفال بالذكرى الخمسين بتونس Cinquantenaire des sœurs de Sion en Tunisie. والتي استقرّت بتونس منذ شهر جانفي ١٨٨٢، وقد تواصلت مع آلاف النساء التونسيات[5].

الأنشطة الثقافية والفكرية الكنسية بتونس:

- مسابقات في الرّسم والتّصوير:
- المحاضرات: من ذلك تنظيم سلسلة محاضرات موجّهة للنّخب تناقش جملة قضايا

1- Les scouts de France à Sfax. In. La Tunisie catholique (Archidiocèse de Carthage). N° 5. Dimanche 31 Janvier 1932. p 81.
2- Chronique diocésaine. In. La Tunisie catholique (Archidiocèse de Carthage). N° 16. Dimanche 17 Avril 1932. p 260.
3- Les petites sœurs des pauvres. In. La Tunisie catholique (Archidiocèse de Carthage). N° 20. Dimanche 15 Mai 1932. p 344
4- Les Dames de charité à N-D. du Rosaire. In. La Tunisie catholique (Archidiocèse de Carthage). N° 31. Dimanche 28 Août 1932. p 495.
5- Cinquantenaire des sœurs de Sion en Tunisie. In. La Tunisie catholique (Archidiocèse de Carthage). N° 4. Dimanche 24 Janvier 1932. p 50.

دقيقة، تعالجها تحت عنوان مركزي فحواه: من أجل إشعاع الفكر الكاثوليكي Pour le rayonnement de la pensée catholique، ومن تلك المواضيع التي طرحتها الكنيسة مع سرد لفقرات من محتواها:

- **Un beau projet :** Le catholicisme n'est pas un formalisme stérile, se bornant à quelques gestes rituels plus ou moins routiniers…Aujourd'hui, en raison du mouvement intellectuel très intense qui règne à Tunis, un sérieux effort semble s'imposer dans le plan intellectuel, pour le rayonnement de la pensée catholique.

  De là le très vif désir exprimé par Son Excellence Mgr l'Archevêque de voir inaugurer ici, sans retard, de grandes conférences dans lesquelles des orateurs et écrivains éminents feraient entendre leur forte et brillante parole[1].
- **Le pain de l'esprit :** Ce pain de salut, c'est la pensée catholique… le catholicisme donne le plus sages réponses sur tous les problèmes temporels les plus graves, fondant la morale, éclairant la science, inspirant les arts et les lettres, couronnant la philosophie, stimulant et dirigeant l'évolution sociale vers un progrès ordonné et non vers les folles aventures d'imaginations en délire, essayant d'établir dans le monde le règne de la paix véritable qui ne peut être assuré que par la modération, la Justice et la charité évangéliques[2].
- **Le principal, c'est de comprendre**…[3]

1- Pour le rayonnement de la pensée catholique : un beau projet. In. La Tunisie catholique (Archidiocèse de Carthage). N° 22. Dimanche 29 Mai 1932. p 352.
2- Pour le rayonnement de la pensée catholique : Le pain de l'esprit. In. La Tunisie catholique (Archidiocèse de Carthage). N° 23. Dimanche 5 juin 1932. p 382.
3- Pour le rayonnement de la pensée catholique : Le principal. c'est de comprendre…. In. La Tunisie catholique (Archidiocèse de Carthage). N° 26. Dimanche 26 juin 1932. p 426.

- **Œuvre nécessaire :** Dans cette mêlée des idées, quelle est la place occupée par la pensée catholique ?[1]

- البحوث والدراسات:

تُعد المجلّة بعض البحوث والدراسات استجابة للتحدي الذي أصبحت تواجهه من النخب الفكرية التونسية، مثل:

أ دراسة حول الصلاة بعنوان:

Encyclique « Caritate Christi compulsi » sur la prière et la réparation à offrir au sacré-cœur dans les épreuves présentes du genre humain[2].

ب دراسة حول قرطاج:

R. P. Lapeyre : Carthage : un demi-siècle de travaux[3].

مصير الكنيسة ما بعد الهيمنة الفرنسية:

أشرنا سابقا إلى أنّ الكنيسة لم تنتعش إلاّ في ظلّ الاحتلال الفرنسي، لذلك خاضت حربا شرسة وصراعا محموما من أجل فرض الذّات، ولكنّها في عمومها أساليب يشوب الكثير من الغموض، وفي مجملها غير إيجابية. فهي تارة تستنجد بالبعثات التنصيرية في مجالات الصحة والتعليم، وتارة بالمنظمات الإغاثية الكنسية، وما انفكّت تراهن على الإدارة الاستعمارية وتنظر من طرف خفي إلى القوة العسكرية الفرنسية المخيفة ترهب خصومها وتفرض أمر الواقع على التونسيين، حتى غدت ناطقا رسميا باسمهم كما أشرنا في مواطن عدّة.

ومن المؤسف أنّ الكنيسة لم تستطع استيعاب حقيقة تاريخية حتمية مفادها انتهاء الوجود المسيحي بتونس منذ الفتح الإسلامي، الذي تصرّ على تسميته بالحملات العربية وترفض الاقرار بالأمر الواقع.

1- Pour le rayonnement de la pensée catholique : œuvre nécessaire. In. La Tunisie catholique (Archidiocèse de Carthage). N° 27. Dimanche 3 juillet 1932. p 444.

2- Encyclique « Caritate Christi compulsi » sur la prière et la réparation à offrir au sacré-cœur dans les épreuves présentes du genre humain. In. La Tunisie catholique (Archidiocèse de Carthage). N° 23. Dimanche 5 juin 1932. p 369.

3- Un beau livre sur Carthage. In. La Tunisie catholique (Archidiocèse de Carthage). N° 6. Dimanche 7 février 1932. p 99.

ومعلوم أنّ كلّ تلك الترسانة من المؤسسات الكنسية على مختلف انتماءاتها غير قادرة على مجاوزة الأطر التي تمثّلها من مجموع البعثات الأجنبية على مختلف أنشطتها. ولعلّ السيّد مارون لحّام كان أكثر رجال الدّين المسيحيين صراحة وصرامة في رسالته الأسقفية بعد سرده لتاريخ الكنيسة بتونس: "نلاحظ سلسلة من الوقائع الجديدة في كنيسة تونس: شيخوخة الأشخاص؛ (الرّهبان، المتدينون والمتديّنات، علمانيون) غلق أبواب عدد كبير من المدارس، أعضاء حركات دينية جديدة، ضعف الحمية الدينية.

أصبح جليا أنّ عالما قديما على مستوى الكنيسة في طريقه للتلاشي وعالما جديدا يبحث عن ذاته ولم يوفّق بعد. إنّ وصول المئات من الأفارقة للدراسة في الجامعات التونسية وتمركز بنك إفريقيا للتنمية بتونس وتواجد المئات من الشركات الأجنبية، الوصول المدعوم للمسيحيين العرب من الشرق، دون الحديث عن ملايين السيّاح... كلّ هذا يجبر على التفكير في أشكال جديدة للتواجد والاستفادة من الكنيسة[1].

وفي ورقة أخرى بعنوان "استجواب يتعلّق بالجنوب والمناطق الدّاخلية بتونس Questionnaire à propos du sud et de l'intérieur du pays" قال مارون لحّام: لنكون واقعيين وأكثر فاعلية لا بدّ من الوضع في الاعتبار: الأرضية، رجال الكنيسة، الهدف الذي يحدّد العمل.

وفي تقديرنا أنّ كلّ تلك التصوّرات هي محاولات إحيائية هدفها نفخ الرّوح من جديد في جسد التنصير تحت لافتات مغايرة نتيجة لتغيّر الواقع ووصول المواطن التونسي إلى درجات متقدّمة من الوعي الحضاري والحصانة الدينية تحميه مخطّطات التنصير وما تهيّئ له الكنيسة من مخطّطات جديدة. وفي تقديرنا أنّها تدور في حلقة مفرغة تحوم حول نفسها، كما بدأت انتهت. وذلك لسببين رئيسيين:

- السبب الأوّل: أصالة التديّن وعمقه في الشخصية التونسية.
- السبب الثاني: الوعي بالتّاريخ وطبيعة التعاطي مع الكنيسة.

1- Mgr Maroun LAHHAM (Evêque de Tunis) : L'église en Tunisie précis historique. Pâques 2007. Tunis.

ولعلّنا في خلاصة السيّد مارون لحّام ما يؤكّد ذلك. فهو يطرح سؤالا مهمّا: ما هي أشكال التواجد والخدمات الآنية والواقعية في الجنوب والمناطق الدّاخلية بالبلاد؟ ثمّ يجيب من خلال تعداده لجملة مسائل:

- مجال التعليم: مدارس، دعم مدرسي (دروس تقوية)، مكتبات (مهما كانت: صغيرة، متوسطة أو كبيرة، وهذا يتوقّف على "الزبائن" الذين تتوجّه إليهم).
- مجال الصحة: العمل الصحي والاجتماعي، مراكز علاج، مصحّات.
- الاستقبال بالكنيسة.
- زيارة المساجين.
- جمعيات المعاقين ذهنيا وعضويا.
- تنشيط JCAT.
- سياحة.
- الزيجات المختلطة.

بعض المقترحات الأخرى:

- المشاركة في الحياة بالأحياء.
- معايشة وتهيئة أكبر قدر ممكن من المرونة مع المؤسسات.
- المعرفة بواقع البلاد.
- ضرورة التواجد في عالم السياحة.
- التنسيق على مستوى الأسقفية لتنشيط فرق JCAT في كلّ المدن الجامعية.

لكن يجب الوضع في الاعتبار التّاريخ والتطوّر السريع في السنوات الأخيرة للعقلية في البلاد. ولمعرفتها:

- التحلي بالواقعية.
- تنمية حياة التأمّل.
- تقوية العلاقة بالزيجات المختلطة.
- ضمان الحضور بالقرب من كبار السن والمعزولين والمرضى...

- الإعلاء من القيم المشتركة الإسلامية المسيحية.
- الحضور بالأحياء المهمّشة.
- التعاون مع الجمعيات التونسية.
- استقبال المهاجرين.
- رياض الأطفال ما قبل المدرسي.
- استقبال ومتابعة الأمهات العازبات (من لهن أطفال من السفاح: الزنا).
- بيت لعائلة تعالج طفل مصاب بالسرطان.
- تنويع الأنشطة الحالية للكنيسة وتوسعتها في مختلف الأحياء.
- ضمان العلاج الأوّلي.
- التواصل الديني مع السيّاح.
- نوادي إعلامية.
- التوأمة مع أسقفيات أخرى.
- الانفتاح على الكنائس العربية بالشرق الأوسط.
- التعليم العالي.
- التماس العون من العائلات حديثي الإحالة على التقاعد.
- الانتباه لعدم التفريط في المواقع بالأحياء الفقيرة بالمرسى والقصرين والدندان... التي يجب أن تبقى مكان يشهد للكنيسة[1].

خاتمة المبحث

يحيلنا المبحث إلى جملة خلاصات محدّدة يمكن ضبطها في ثلاث مسائل:

- **المسألة الأولى:** يلاحظ من خلال مسيرة البعثات الكنسية بتونس سيطرة هاجس خفي على طبيعة تعاطيهم مع الحالة التونسية، يكمن في الخوف من الفشل في استرداد تونس من الحاضنة الإسلامية.
- **المسألة الثّانية:** عدم قدرة الكنيسة استيعاب جوهرية التحوّل في البنية الدينية والحضارية التونسية، لذلك حافظت منذ القديم وخاصّة مع وقوع تونس تحت

1- Mgr Maroun LAHHAM (Evêque de Tunis): Questionnaire à propos du sud et de l'intérieur du pays. 23.5.2007. Tunis.

الهيمنة الفرنسية على نفس منطق التعاطي مع الواقع الجديد بآليات غير فاعلة. فهي تتقلّب بين المنطق الصليبي العدواني وبين الاستنجاد والتقوّي بالجيش الفرنسي.

- **المسألة الثالثة:** والأكثر أهمية، هي عودة الكنيسة لنفس الأساليب التي استعملتها البعثات التنصيرية القديمة إلى تونس وإن كانت في لبوس جديد. ولم تستوعب مآلات جهود الكاردينال لافيجري الذي أُجبر في كلّ مرّة على بيع المؤسسات التربوية الكنسية للدّولة التونسية أو الحاقها بالتعليم الرّسمي، وفي تصوّرنا أنّ مآلات الكنيسة بتونس حديثاً لن تختلف مع الماضي. لذلك يتعيّن على الكنيسة بتونس وبحسب نتائج البحث:
  - القطع مع مشروع التنصير بتونس الذي يستهدف المسلمين واستغلال وضعهم المادي والصحي والتربوي.
  - الاهتمام بالمسيحيين الوافدين وإعانتهم على العيش بتونس بشكل إيجابي خاصّة القادمين من إفريقيا.
  - الاستثمار في حركة الحوار الديني الحضاري بما ينفع الشعوب والأمم، مع احترام خصوصيات البلد المضيف.
  - الاستفادة من المؤسسات الكنسية القديمة بتونس ومعرفتها الدقيقة بالواقع التونسي في سبيل تطوير سبل العيش المشترك بين أتباع الأديان، وهو ما افتقدته كنيسة قرطاج طيلة تواجدها بتونس.

القضايا الجدلية من خلال المجلّة الزيتونية:

من خلال عملية جرد صحيفة تونس الكاثوليكية La Tunisie Catholique ظهر أنّ المشرفين على المجلّة الزيتونية كانوا على اطّلاع مباشر على ما تصدره الكنيسة ومؤسّساتها بتونس. ويدلّ ذلك على متابعة لصيقة للنشاط الكنسي في مختلف تجلياته. فلا عجب أن الصحافة التونسية كانت على الضفة الأخرى من الحراك الوطني تقود حملة منظّمة لكشف سياسة الاحتلال الفرنسي بتونس وكيفية

تقاسمه الأدوار مع مختلف المؤسسات والبعثات الكنسية. وبحسب مراجعتنا لأعداد من الصحف المتابعة لتلك الأحداث نجد أن صحيفة الزُهرة والنهضة وصوت التونسي والعمل، كانت أكثر انخراطا في مهمّة التوعية الوطنية من خلال المقالات والتحاليل والتغطية الصحفية لتلك الأحداث. تستوي في ذلك الصحف المصنّفة معتدلة تصالحية مثل الزُهرة، والصحف المحسوبة على الشق المتصلّب في الحركة الوطنية، خاصّة ما يصدره أساتذة وطلبة جامع الزيتونة.

فقد أوردت مثلا، صحيفة الزُهرة في افتتاحية عددها بتاريخ ١٨ جوان ١٩٣٠ أنّ المسلمين ليسوا أعداء الكنيسة وإنّما يرفضون وضع يد المسيحية على تونس. وعلى نفس الوتيرة سارت وتفاعلت بقية الصحف التونسية التي كانت عُرضة للمضايقات والمصادرة والسحب من الأسواق وإلغاء بعض المقالات... فكان للصحافة الوطنية دور رئيس في تعميق الشعور الوطني وتعطيل دوران آلة المؤسسة الكنسية، لتسير على غير النّسق الذي يجب. وفي بحثه القيّم "اللقاء بين الكنيسة الكاثوليكية والإسلام في تونس من ١٩٣٠ إلى ١٩٦٨" يقدّم ميشال للونغ قراءة دقيقة لواقع الصحافة التونسية ودورها المميّز في التصدي لجملة تلك القضايا التي نحن بصددها، وخاصّة المؤتمر الإفخارستي ومسألة التجنيس[1]. إلاّ أنّ عنوان البحث في ذاته يحمل أكثر من معنى وله أكثر من دلالة ويمكن قراءته بوجوه متعدّدة، خاصّة وأنّ الكاتب كان قد عيّن كاهنا بكنيسة قرطاج سنة ١٩٤٨ ثم أصبح من الآباء البيض، الذين انخرطوا باكرا في أسقفية قرطاج وكانوا أكثر فاعلية من غيرهم خلال المؤتمر الإفخارستي الثلاثين بتونس، وكذلك مؤتمر التجنيد الكهنوتي بتونس؛ ١٣ – ١٧ أفريل ١٩٣٢.

خطّت المجلّة الزيتونية لنفسها، منذ تأسيسها، خطا واضحا، وتبنّت قيمة أعلنت أنّها ستحترمها كما ورد في آخر مقدّمة العدد الأوّل: "وسيكون شعار المجلّة

1- Michel LELONG : La rencontre entre l'Eglise catholique et l'Islam en Tunisie de 1930 à 1968. Thèse complémentaire pour le Doctorat-ès-Lettres. Aix-en-Provence. 1970. IBLA Tunis. p 168. « constate tout d'abord chez les zitouniens 'indifférence. tolérance et méfiance' à l'égard de l'église et il cite comme témoignage de ette méfiance des textes parus entre 1945 et 1955 dans des publications zitouniennes u sujet des dangers du prosélytisme chrétien ».

في جميع أعمالها وفي مختلف أطوارها؛ الإصلاح الديني ومقاومة كل حركة ترمي إلى الإلحاد أو التعصب الديني أو المذهبي، ومقاومة البدع بجميع أنواعها ما استطاعت إلى ذلك سبيلا، وبث العلوم والمعارف بين الناس بأقرب الوسائل وأسهل الطرق، وتدخل في المناقشات العلمية مع التزام الآداب في المناقشة والأخذ بالرفق واللين وتحاشي ما وقع فيه كثير من أهل العلم من تنكّب جادة الصواب، والخروج في المناقشات العلمية عن دائرة الآداب، بما صيرهم سخرية عند العام فضلا عن العلماء، ومضغة في أفواه الحمقى فضلا عن العقلاء. لذلك لا تنشر المجلة إلا ما كان داخلا تحت هذا الشرط. إذ أهل العلم يجب أن تظهر فيهم مكارم الأخلاق بأجلى مظاهرها وأكمل صورها، وإلا فهم غير صالحين لأن يقتدي بهم واحد، وما صلح الملح إذا الملح فسد"[1].

ومن أوجه الإصلاح الديني ومقاومة الإلحاد والتعصّب ما كتبه رئيس التحرير تحت عنوان "أشد الناس ضررا على الدّين أعداؤه الذين يعملون ضده وهم ينتسبون إليه"، حيث قال: "...ورغما عن ذلك كله فنحن لا نزال نرى أفرادا يقومون بدعايات لإفساد الدّين والعبث به والتشويش على عامة المسلمين بإلقاء بذور الإلحاد والزندقة بينهم أو بإدخال الشبهات عليهم وصدهم عن ذِكر الله لما ينشرونه من ضلالات وتوقفات في أمور لا داعي للتوقف فيها"[2].

وفي تقديرنا أن المقال إجابة أدبية على بعض الأفكار التي بدأت تأخذ طريقها إلى عديد النُخب التونسية يومها، سواء المتمدرسين بالمؤسسات التعليمية غير الزيتونة أو الذين التحقوا بالمؤسسات التعليمية بفرنسا، خاصّة وأنّ الفكر اليساري كان في أوج قوّته، كذلك التوجّهات العلمانية والتأثّر برياح التغريب كخيار ثقافي حضاري حرصت المؤسسات الرّسمية الفرنسية على ترسيخه في النُّخب التونسية بديلا للثقافة الوطنية. ولعلّ ما كتبه محمّد العزيز جعيّط تحت عنوان "التشريع الإسلامي والمرأة"، جزء من المطارحات الفكرية التي ميّزت تلك الحقبة من تاريخ

١- محمد المختار بن محمود: المقدّمة. المجلّة الزيتونية، م ١ / ج ١ / رجب ١٣٥٥، سبتمبر ١٩٣٦، ص ٥.

٢- محمد المختار بن محمود: المقدّمة. المجلّة الزيتونية، م ١ / ج ٣ / رمضان ١٣٥٥، نوفمبرر ١٩٣٦، ص ١٠١.

الفكر التونسي، وتعبيرا عن نضج الصحافة التونسية وقدرتها على إدارة حوار هادئ مفيد، فهو يقول في معرض حديثه: "كثير ما وجه المتعصبون من الغربيين سهام الانتقاد على الشريعة بتهمة الإجحاف بحقوق المرأة حتى أثر ذلك على بعض المنتمين إلى الإسلام ممن فتنهم زبرج التمدن الغربي فانصاعوا لأقوال أهله دون تمييز بين السمين والغثيث والطيب والخبيث وأصبح النساء مثار فتنة من ناحية العدل في التشريع كما كن ومازلن حبائل فتنة من ناحية العفة والاستقامة...لهذا آثرنا الحديث على مراعاة الشارع للمرأة في جميع أطوارها وعامة نواحيها حتى يتجلى لذي عينين محاسن هذه الشريعة المباركة فيما تضمنته تعالىمها من مراعاة مصالح النساء..."[1].

ولعلّنا نلمس في هذا المقال شيئا من التبرّم أو الضيق من أصحاب هذا التوجّه، واضعين في الاعتبار خصائص تلك المرحلة التاريخية، والصدمة التي تلقاها المفكّر التونسي يومها من الوافد الغربي، والذي لم يقدر على مدافعته ومغالبته لقوّة سلطانه القهري وإرادة الهيمنة وما كان يتمتّع به من دعم قوي، باعتباره خيارا ومسارا اتّضحت معالمه ما بعد الاستقلال الوطني، وما صاحبه من إجراءات إدارية خاصّة؛ غلق جامع الزيتونة وقانون منع تعدّد الزوجات...، وهي في عمومها خطوط حمراء عند علماء جامع الزيتونة وطلاّبه، ومن انخرط في خيارهم الحضاري، وتبنى مشروعهم الفكري المستند إلى المراجع الأصولية الإسلامية. كما أفصح عن ذلك المحامي المهدي بن الناصر في مقال له بعنوان "الإسلام منقذ البشرية ومركبها إلى شاطئ النجاة"، تعرّض فيه للمذاهب الفلسفية والمادية والإلحادية...في الغرب عامة، ثم أبان فيه عن مكارم الشريعة وفضائلها ودورها في إنقاذ البشرية من التيه والضلال الذي عاشت فيه[2]. أو ما يعبّر عنه حديثا بمقولة: الإسلام هو الحل.

يتّضح لنا من خلال ذلك أنّ القضايا الجدلية في عمومها هي ما نتج عن سياسة الكنيسة على مستوييها الديني العقائدي والفكري الفلسفي، خاصّة وأنّها

١- محمد العزيز جعيط: التشريع الإسلامي والمرأة. المجلّة الزيتونية، م ١ / ج ٤ / شوال ١٣٥٥، ديسمبر ١٩٣٦، ص ١٧٨.

٢- المهدي بن الناصر: الإسلام منقذ البشرية ومركبها إلى شاطئ النجاة. المجلّة الزيتونية، م ١ / ج ٤ / شوال ١٣٥٥، ديسمبر ١٩٣٦، ص ١٨٩.

قائمة بالأساس على المؤسسات التعليمية الأجنبية الحديثة بتونس، أو ما يعرف بمدارس البعثات التنصيرية التي حرص الكاردينال لافيجري على تأسيسها وافتتاحها في كلّ المدن التونسية، جنبا إلى جنب مع دور رعاية الأيتام والمشردين، الذين وضع لهم خطّة دقيقة لاحتضانهم ثم تزويجهم بالبنات الفرنسيات نزيلات دور الرعاية بفرنسا، وهكذا يتمّ الرّبط بين الجانبين المعرفي والاجتماعي وخلق عنصر بشري جديد هجين، يجمع بين الأصول التونسية والروح الدينية المسيحية، وهو ما تصدى له علماء جامع الزيتونة وطلاّبه، من خلال صحافتهم ومنشوراتهم وتحرّكاتهم الميدانية والفكرية...

التنصير: ورد ذِكره في المجلّة الزيتونية تحت مصطلح "التبشير" والمبشّرون، وهي تسمية غير دقيقة، لأن كلمة تبشير العربية مصدرها البشارة Evangile من الإنجيل، ومنها كلمة Evangélisation التبشير، ومنها الكنيسة الإنجيلية Les églises évangéliques التي هي جزء من المسيحية الإنجيلية. فقد انحدر مصطلح الإنجيلي Evangélique في البداية من الإنجيل، ثم أخذ بعدا دينيا جديدا مع حركة الإصلاح الديني التي تزعمها الألماني مارتن لوثر Martin Luther سنة ١٥٢٠. أمّا مصطلح التنصير فهو يقابل Christianisation، وبما أنّها كلمة صادمة للشعوب المعنية بذلك وخاصّة الإسلامية فقد تم الاستعاضة عنها بمصطلح مغرض وهو التبشير، والمقصود به التبشير بمضامين رسالة المسيح كما تفهمها الكنيسة، والمؤسّسة في جوهرها على خطاب بولس الرسول بعد التخلّص من الحواريين أو الموحّدين أتباع المسيح عليه السّلام[1].

كما ذُكِر مصطلح آخر يفيد نفس المعنى وهو "الدعاية المسيحية". وقد خصّصت هيئة المجلّة الزيتونية عددا كاملا وهو الجزء التاسع من المجلد الخامس بتاريخ صفر ١٣٦٤ الموافق فيفري ١٩٤٥، عرضت فيه الرسالة وعالجتها من ثلاث زوايا متوازية:

1- Marie- Françoise Baslez : La révélation intérieure du Crist. Le Point – référence – Janvier- Février 2016. p 14.

- **الزاوية الأولى:** دراسة وتحليل وتقييم خلفية الرسالة التي وزعتها الكنيسة البروتستانتية في نشرية (عاملون مع الله).
- **الزاوية الثانية:** الوفود والرسائل الاحتجاجية الموجّهة لمختلف الجهات الرسمية التونسية والفرنسية.
- **الزاوية الثالثة:** تقديم شهادات غير المسلمين في الإسلام ونبيّه.

وسنعرض لتلك الزوايا مستعيرين في كل ذلك كلام كتّابه، من دون تصرّف، حفاظا على الأمانة العلمية، مع بعض ملاحظات بحسب ما يقتضيه منهج الدراسة.

- **الزاوية الأولى:** عرض وتحليل مضمون الرسالة محلّ النزاع والاحتجاج:
- **الإسلام والمبشّرون:** مقال مطوّل ناقش فيه كاتبه محمد الشاذلي ابن القاضي، مضمون الرسالة محل النّزاع، وذلك من خلال خمسة مداخل:

الأوّل: التعريف بالرسالة: "ظهرت من الكنيسة البروتستانتية بتونس في العهد الأخير نشرية تهجمت على الإسلام والمسلمين وخاصة على مقام الرّسول الأعظم صلى الله عليه وسلّم وكشف القناع عما يقوم به الرّهبان والراهبات في هذا الشمال الإفريقي مما يسمونه بالتبشير وما يرتكبونه من الحيل لتنصير أبناء المسلمين والدعوة إلى بذل الجهد لجلب الملايين من المسلمين للمسيحية والسعي الحثيث للوصول إلى هذه الغاية"[1].

الثاني: التذكير بمسؤولية علماء الإسلام: "ونحن بما علينا من الواجب نحو هذا الدين الحنيف الذي ندين به ونحو إخواننا المسلمين وما فرضه علينا الإسلام من الاصداع بالحق والرد على كل متهجم معاند نجيب هؤلاء القوم عما نشروه وأذاعوا به من التراهات والأباطيل"[2]، أي الأكاذيب والأراجيف. إذ ينطلق الكاتب من مسلمات عقدية يبطل بها الأفكار التي تضمّنها المقال المنشور في الجريدة المسيحية. فهو ينطلق من مبدأين اثنين: الأوّل تفنيد عقائد الكنيسة وإبطال مقولتها، والثاني بيان الحقيقة للمسلمين وطمأنتهم من حيث صحّة

١- محمد الشاذلي ابن القاضي: الإسلام والمبشرون. المجلّة الزيتونية، م ٥ / ج ٩ / صفر ١٣٦٤، فيفري ١٩٤٥، ص ٢١٧.
٢- نفس المصدر السابق، ص ٢١٧.

معتقداتهم وأنّ خطاب الكنيسة هو مجرّد نشر للأكاذيب وإفصاح عن نواياها الحقيقية.

الثالث: عرض جانب من مضمون الرّسالة: "هل تستيقظ الكنيسة قوية وغازية فتجلب للمسيح هؤلاء الملايين من المسلمين الذين أضلّهم نبي دجّال"[1]. ومن ثمّ يقوم بالردّ على هذه المقدّمة من خلال بيان محاسن الإسلام ومكارم الشريعة الإسلامية وسمو أخلاق المسلمين وسلوكهم ونظافة سريرتهم وطهارة أبدانهم وثيابهم ودورهم في صناعة الحضارة وتفوّقهم على غيرهم من الأمم. وبالجملة فإنّ الإسلام: "يأمر بالعدل وكل الفضائل وينهى عن الفحشاء والمنكر وكل الرذائل فهذه وأمثالها تعاليم الإسلام التي أمر بها صاحب الرسالة الأعظم صلى الله عليه وسلم واهتدى بها المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها، فجعلت المسلمين من عهد الرسالة من الوجهة الأخلاقية والاجتماعية في أعلى درجات الحضارة وأخرجت الناس من عالم الوحشية إلى عالم الإنسانية الفاضلة"[2].

فهو يركّز على جانب القيم الإسلامية الكونية، ويُلفت النصارى إلى المشترك الديني الذي يجمعهم، بل يقرّبهم من بعض في مواجهة المنظومة المادية التي وصفها بمصطلح "حضيض الوحشية".

الرّابع: نقد تعاليم الكنيسة من خلال بيان حقيقة دعوة المسيح: "وهل من تعاليم المسيح التعدي على الناس ورميهم بأوصاف يتنزّه اللسان الطاهر أن ينطق بها ولا يبيح لصاحب المروءة أن يلصق بها واحد من عموم الناس فضلا عن أصحاب المقامات السامية فضلا عن رسول يدين برسالته نيف وثلاثمائة مليون مسلم"[3].

الخامس: النّقد المباشر من خلال بيان واقع الكنيسة وأتباعها: "أعجب لمن يروم إصلاح النّاس فيما يزعم وصدّهم عن المهالك ويداه مخضّبتان بالإثم والعدوان وهلا اعتنى القوم بشبابهم الذي يمرق من حضيرة معتقداتهم كل يوم

١- نفس المصدر السابق، ص ٢١٧.
٢- نفس المصدر السابق، ص ٢١٨.
٣- نفس المصدر السابق، ص ٢١٨.

كما يمرق السهم من الرمية متأثر بالدعايات الإلحادية التي يئن من وقرها أهل العقول...ذلك أجدى لهم من الهجوم على المسلمين"[1].

ثم يختم مقاله بدعوة ونداء:

أ/ دعوة لغير المسلمين في عالم متقارب متجاور للعيش المشترك على أسس الاحترام المتبادل والتعاون البيني بما فيه خير ونفع الإنسانية بعيدا عن الدعاية والتحامل والاستعداء، فهو يعرض الأجدر ويدعوهم لنبذ خلاف الأولى، بقوله: "كنا نحسب أننا في عصر زالت فيه الحجب وتعلم الناس احترام الحقوق الخاصة والعامة واندك فيه صرح التعصّب يقوم الناس على حسن المعاشرة متمسكين بما ينبغي من الآداب سالكين مسلكا يرفع لواء السلام ويبسط عليهم ظلال الأمن والوئام ويمكّن للعائلة البشرية المختلفة المذاهب والنحل من العيش متعاون أفرادها على المصالح العامة تعمل كل جماعة بمصالحها الخاصة حسب تقاليدها الدينية والقومية من دون أن تلحق بغيرها ضررا..."[2].

ب/ نداء للمسلمين بعد تأكّده من انحراف الكنيسة عن مهامها وأنها لا يمكن أن تكون طرفا فاعلا وشريكا إيجابيا في نشر الخير والتعاون بين النّاس: "فيما معشر المسلمين إن مما فرضه الله علينا أن نذكّركم بما يوجبه الإسلام وننصح لكم إزاء هذه الأعمال وهاته الطرق الضارة بكم وأبنائكم ومرضاكم ونسائكم. فالواجب عليكم أن تحذروا هؤلاء الناس فلا تعلّموا أبناءكم وبناتكم في مدارسهم ولا تداووا مرضاكم في مستشفياتهم...فلا يباح لكم تقديم فلذات أكبادكم لهؤلاء الذين ظهر أمرهم للعيان ولا تأمنوهم عليهم بعد ما علمتم برامجهم، واتّقوا الله فيما تحت أمانتكم والله يحب المتّقين"[3].

ففي الخاتمة إعلان للحكم الشرعي بعدم جواز الالتجاء إلى غير المسلمين في الصحة والتعليم...ورفع الجواز أي التحريم، وهو حكم شرعي ملزم، تأكّد بعد بيان حال الكنيسة وسياستها. ثم جعل ذلك من علامات التقوى وهي خشية الله تعالى

١- نفس المصدر السابق، ص ٢١٩.
٢- نفس المصدر السابق، ص ٢١٩.
٣- نفس المصدر السابق، ص ٢١٩.

والخضوع له، وجعل ذلك محلّ الأمانة التي استُحْفظ الإنسان عليها. وهو خطاب ديني مؤصّل أراد من خلاله صاحب المقال التأثير المباشر في القارئ، واعتبار ذلك الكلام ملزما واجب الإتباع، دفاعا عن الإسلام وحفاظا على المجتمع الإسلامي.

- **الزاوية الثانية:** الوفود والرسائل الاحتجاجية الموجّهة لمختلف الجهات الرسمية التونسية والفرنسية.
- دور جامع الزيتونة نحو الدعاية المسيحية: تغطية للحركة الاحتجاجية التي قام بها أساتذة جامع الزيتونة، وقد تضمنت:

أ احتجاج المشايخ المدرسين.

ب وفد المشايخ المدرسين عند الحضرة العلية.

ج تصريحات الجناب الملكي لوفد المدرسين.

د تصريح جناب الوزير الأول.

هـ الهيئة الشرعية.

و مدرسو فروع الآفاق.

ز جمعية الشبان المسلمين.

- تعليق حول بلاغ الوزارة الكبرى: على إثر تصريح ممثل الحكومة الفرنسية، الذي أكد على تسامح فرنسا تجاه الاختلاف الديني والتنوع الثقافي. حيث علّقت المجلّة الزيتونية على ذلك بقولها: "إن عبارة التسامح التي جاءت في البلاغ تعجب منها المسلمون لأنهم يعتقدون وكما هو الواقع أن إقامة الدين الإسلامي والشعائر الإسلامية في هذه الديار الإسلامية ليست من باب التسامح من الحكومة الفرنسوية بل إن الدين الإسلامي هو الدين الرسمي للحكومة التونسية ...فكيف يمن عليهم بالتسامح مع كافة العناصر الإسلامية.

على أن المسألة وراء ذلك فهي مسألة إطفاء غضب هؤلاء العناصر الذين طعنوا في الصميم ولا يظن أنها مجرّد قضية بسيطة يكفي فيها مثل هذا القول الذي عاد على موضوعه بالنقض، ونحن نجاهر الحكومة بما يحس به إخواننا المسلمون

وما يتحدثون به لتدارك الأمر بسياستها الرشيدة"[1].

- خطاب الشيخ محمد الشاذلي ابن القاضي مدير هذه المجلة أمام الملك المعظم سيدنا محمد الأمين باشا باي: فقد ترأس وفد الهيئة العلمية بجامع الزيتونة ليعرب على لسانها بما تشعر به من الألم من تعدي الكنيسة على مقام صاحب الرسالة الأعظم صلى الله عليه وسلّم. وذلك من باب مناصحة العلماء لأولي الأمر. ثم توجّه إلى الملك بجملة مطالب، منها:

أ- إلزام الحكومة الفرنسية باحترام الدين.

ب- عدم السماح بنشر أي رسالة أو مقالة فيها ما يمس بدين المسلمين.

ج- الاعتذار الصريح عما صدر في رسالة "عاملون مع الله".

د- محاكمة الناشر والمطبعة لمخالفتهم القانون العام.

هـ- سن تشريع يمنع المسلمين من تعليم أبنائهم في مدارس الرهبان والراهبات ويمنعهم من التداوي بمستشفياتهم[2].

- يتّضح من خلال هذا الخطاب أنّ المقال الأسبق الذي قمنا بعرض محتواه وتحليله لم يكن من بناة فكر محمد الشاذلي ابن القاضي، وهو مدير المجلة، وإنما كان تعبيرا عن توجّه عام للمؤسسة الزيتونية وقّعه باسمه. إذ أنّ بنود المطالب التي وجّهت إلى ملك تونس هي ذاتها التي ذكرها الكاتب في مقاله، صحيح نُشِرت في المجلة الزيتونية ولكنها بحسب تقديرنا كانت من أجل تهيئة الرأي العام التونسي وتشكيل وعيه في اتّجاه معيّن حول قضية جدلية خطيرة بامتياز تمسّ عقيدة المجتمع في الصميم، بحسب عبارة صاحب المقال.

- احتجاج المدرسين بجامع الزيتونة على ما جاء في رسالة (عاملون مع الله): مناسبة أعرب فيها أعضاء هيئة التدريس لا عن احتجاجهم فقط تجاه التعدي على مقام النبي صلى الله عليه وسلّم، بل للتعبير عن سخطهم لما تتعرّض له صحيفتهم من عرقلة ومضايقة من قبل الإدارة الفرنسية عند تجاوزها الخطوط الحمراء التي

١- نفس المصدر السابق، ص ٢٢٢.

٢- نفس المصدر السابق، ص ٢٢٣.

وضعتها، حيث جاء في الاحتجاج ما نصّه: "...وأن أهل العلم من هذه الأمة بما بوأتهم نسبتهم من هذا المقام الكريم من منازل الحرمة والاعتبار يرون فرضا عليهم أن يكونوا الصادعين بهذا الاحتجاج البالغ من الأمة الإسلامية أسوأ مبلغ. فيتوجهون إلى مقامكم العلمي الشريف رجاء رفع احتجاج الهيئة العلمية الدينية وعلى سماح قلم مراقبة المطبوعات برواج مثل هذا الهذيان في الوقت الذي تؤاخذ فيه نشراتنا بالسفاسف ويشدد عليها أكما التشديد احتجاجا يبلغ من طرف مشيختكم الجليلة إلى السفارة الفرنسوية بتونس والوزير المعتمد للحكومة الفرنساوية بشمال إفريقيا ووزارة الأمور الخارجية بفرنسا من الطرق الرسمية"[1].

- احتجاج طلبة الجامع الأعظم المرفوع لكل من جلالة الملك المعظم وسعادة السيد بيدو وزير خارجية فرنسا والجنرال ماست المقيم العام بتونس: تفاعلا وتكاملا مع احتجاج الهيئة العلمية لمشايخ الزيتونة، وانسجاما مع التوجّع العام للمؤسّسة، معبّرين عن سخطهم ورفضهم الشديد لما جاء بنشرة "عاملون مع الله" التي أصدرتها هيئة الكنيسة الإصلاحية "البروتستانت". ومما ورد في الرسالة: "غير أن تعشقنا للتروي وحبنا للرصانة والتعقل، تلك التعاليم السمحة التي استقيناها من ديننا السمح الكريم تجبرنا بأن لا نقف مواقف الطيش والرعونة التي وقفها الآخرون لانطوائهم على الحقد وجهلهم عواقب الأمور، بل نكتفي الآن ببعث هذا الاحتجاج الصادر من قلوب ملئت استنكارا واستياء من جراء هذا الموقف الوقح الذي تقفه هيئة الكنيسة المومى إليها.
- ولا يفوتنا في هذا المقام أن نلاحظ: أن العود لمثل هذا الطعن والتخرصات والأباطيل لن تكون محمودة العاقبة إذا انتهكت حرمات الدين في شخص رسوله ووصل الاعتداء إلى الطعن في صلوحية هذا الدين ووقع الهجوم على العقيدة ورميها بالنقص"[2].

١- نفس المصدر السابق، ص ٢٢٤.
٢- نفس المصدر السابق، ص ٢٢٥.

- تُفصح رسالة طلبة الزيتونة على تغيّر في لهجة الخطاب ومضمونه، كما يظهر فيه تقاسم للأدوار بين شيوخ الإسلام العقلاء المنضبطين لسياسات الدولة ومؤسساتها وبين فورة الشباب وعاطفته الجياشة وقدرته على خوض معركة من نوع آخر، كما تشير إلى ذلك الكلمات التي وقع انتقاءها بعناية كبيرة، تجمع بين الحكمة والتهديد المبطن، والتلميح إلى ما يمكن القيام به عند الاستثناء.
- **الزاوية الثالثة:** تقديم شهادات غير المسلمين في الإسلام ونبيّه.
- شهادة القس لوازون الفرنسي بصحة رسالة النبي صلى الله عليه وسلّم: وأصلها محاضرة أو خطبة دينية لاهوتية ألقاها في بتونس أمام جموع مسيحية في غالبها بحسب الخطاب والضمائر المستعملة، تحدّث فيها عن الحكمة من الرسالة المحمدية، ودورها في تكوين أمة كبيرة تمدّدت إلى أوروبا، وعن طبيعة المسيح ووجود الخالق تعالى. من خلال مقاربة عقدية، الغاية منها بحسب ظاهر الخطاب والحجج المستعملة التقريب بين المسلمين والنصارى بحسب مصطلحه.
- وفي ختام مداخلته، وكخلاصة لحديثه قال: "...والنصارى جهلوا خالقهم وزاغوا عن الطريق المستقيم، ولذلك تجد المسلمين في رفعة عن النصارى من هذه الحيثية ولا ترى فيهم واحدا يكفر بالله كما يفعل النصارى في كل حركة وسكون وما اهتدى مئات الملايين إلى الإسلام إلا ببركة محمد الذي علمهم الركوع والسجود لله وأبقى لهم دستورا لن يضلوا بعده وهو القرآن الجامع لمصالح دنياهم ولخير أخراهم"[1].
- رأي المستشرق الأمريكي ادواردو رمسي في الإسلام والمدنية الحديثة: يتكوّن المقال من ثلاثة أجزاء:

أ- الجزء الأوّل: شخّص فيه البيئة العربية قبل الإسلام؛ الوثنية، الفوضى الاجتماعية، العبودية، وضعية المرأة والموقف من البنات خصوصاً.

ب- الجزء الثاني: ذكر فيه أن الأديان السماوية التي جاء بها موسى وعيسى عليهما السلام وغيرهما من الأنبياء فقدت نقاءها وفضيلتها الأصلية وعبثت

١- نفس المصدر السابق، ص ٢٢٦.

بها أيدي اللاّعبين فحرفوا كلام الله ولوثوا معتقداتهم بخزعبلات...حتى أصبح الناس لا يكادون يفرقون بين الفضيلة والرذيلة.

ج - الجزء الثالث: تحدّث فيه عن الانقلاب المعرفي الذي أحدثه النبي محمد صلى الله عليه وسلّم: "...هكذا كانت حال سكان شبه جزيرة العرب وتلك هي عاداتهم حينما جاءهم محمد صلى الله عليه وسلم شارحا للعالم رسالة الله الواحد القهار حاملا بيده اليمنى الهدى والفرقان وبيده اليسرى نور المدنية الوضاء ليخرج الناس من الظلمات إلى النور...وأتى اليوم الذي فيه أعادت يد المصلح العظيم ما فند من العدل والحرية والتسامح والفضيلة"[1].

- نداء للعمل بقلم الأستاذ برنارد شو: يتقاطع برنارد شو في سياق حديثه مع ما سبق من كلام المستشرق الأمريكي ادواردو رمسي كما عرضته المجلّة الزيتونية ..

- فقد انطلق من البرهنة على حيوية الإسلام المدهشة، باعتباره الدين الوحيد الحائز أهليه الهضم لأطوار الحياة المختلفة. وأنّه سيكون مقبولا لدى أوروبا غدا، بحسب تعبيره. إلاّ أن اكليروس القرون الوسطى صوّر "الإسلام بأحلك الألوان إما بسبب الجهل أو بسبب التعصب الذميم". ويختم مقاله: "...وهكذا وجد تحول حسن في موقف أوروبا من الإسلام ولكن أوروبا في القرن الراهن تقدمت في هذا السبيل كثيرا فبدأت تعشق عقيدة محمد، وفي القرن التالي تقدمت وربما ذهبت إلى أبعد من ذلك فتعترف بفائدة هذه العقيدة في حل مشاكلها. فبهذه الروح يجب أن تفهموا تنبؤاتي وفي الوقت الحاضر كثيرون من أبناء قومي ومن أهل أوروبا قد دخلوا في دين محمد حتى ليمكن أن يقال أن تحول أوروبا إلى الإسلام قد بدأ"[2].

- إضافة لتلك الزوايا الثلاث التي نَاقشَتْ من خلالها المخطّط التنصيري بتونس، وهي في الحقيقة تتصدى لمشروع تراكمت تجربته منذ المؤتمر الإفخارستي

١- نفس المصدر السابق، ص ٢٢٧.
٢- نفس المصدر السابق، ص ٢٢٨.

الثلاثين بتونس سنة ١٩٣٠ مرورا بمؤتمر التجنيد اللاهوتي سنة ١٩٣٢، تقدم المجلّة الزيتونية أنموذجا عمليا لمخطّط التنصير، وذلك للدلالة على عدّة أمور، منها:

أ- المتابعة الدقيقة لتحرّكات المنصرين

ب- الوعي الراقي بسياسات الكنيسة ومؤسساتها

ج- القدرة على فهم تلك المخطّطات ومحاصرتها والرد عليها بما يفيد

د- من جهة أخرى؛ جرأة الكنيسة نتيجة للطمأنة المستمرة والحماية الدائمة التي تتمتّع بها من طرف الاحتلال.

- وفي تصوّرنا فإنّ هذا المخطّط هو الذي أقام في ضوئه مارون لحام[1] نتائج استبيانه الذي وجهّه لمنظوريه من النصارى، ممّا يدلّ على شيئين أساسين:
- الشيء الأوّل: أنّ الكنيسة بقيت تراوح مكانها، مهمّتها الحفاظ على المؤسسات الكنسية بتونس.
- الشيء الثاني: أنّ الكنيسة فشلت في التقدّم بجميع مشاريعها، رغم ما يُعلن عنه بين الحين والآخر من تنصّر بعض المسلمين التونسيين، ولعلّ مرجع ذلك الفشل إلى حيوية تلك القضايا الجدلية وحضورها في الوجدان التونسي بأشكال متعدّدة. وهو ما يفصح المقال التالي كما نشرته المجلّة الزيتونية.
- التبشير بين المسلمين بقلم مارقريت ميلز. (وهو ترجمة للمقال الذي تهجمت فيه على مقام صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم والمشتمل على الدعوة لتنصير مسلمي شمال إفريقيا المنشور في عدد ٩-١٠ من جريدة "عاملون مع الله"):

تقدّم الكاتبة جملة مسلّمات تنطلق منها في بسط مشروعها التنصيري، وهي:

أ- أن شمال إفريقيا من أجدب وأقحل أراضي التبشير في هاته القارة الواسعة بل يمكن أن نقول: وفي العالم بأسره.

ب- أغفلت كنيسة المسيح مدة قرون بث النصرانية بين المسلمين.

1- Mgr Maroun LAHHAM (Evêque de Tunis) : Questionnaire à propos du sud et de l'intérieur du pays. 23.5.2007. Tunis.

ج ـ خلال القرن التاسع عشر اهتم بعض مسيحيي لندرة بتنصير قبائل زواوة من بلاد الجزائر فاجتمعوا في مجلس كونوه بلندرة وبعد كثير من الدعاء والمشورة عزموا على تكوين بعثة تبشيرية في بلاد القبائل التي مدت نفوذها فيما بعد على رقعة من الأرض أوسع من بلاد زواوة وأصبحت تعرف بالبعثة التبشيرية لشمال إفريقيا.

- يعتبر هذا المقال هو سبب تلك الحركة الاحتجاجية العريضة والذي فجّر غضب علماء جامع الزيتونة وطلاّبه، وحرّك عواطف التونسيين جميعا نتيجة التعدي على النبي صلى الله عليه وسلّم، بقولها في معرض تشخيصها لوضعية الكنيسة: "...وهل تستيقظ تلك الكنيسة التي انمحت اليوم لترجع إلى الحياة جبارة غازية فتنصر وترجع إلى المسيح تلك الملايين من المسلمين الذين أضلهم نبي دجال"[1].

ثم قدّمت تصوّرا أولياً لخطة عمل المنصرين:

- بيع الكتاب المقدّس على أيدي الباعة المتجوّلين.
- إحداث دروس إنجيلية.
- التواصل مع الصبيان والعمل معهم لاستقطابهم.
- إيجاد بيوت ومآوي لصغار العرب اليتامى.
- دروس الخياطة التي يجتمع فيها التعليم العلمي مع تعليم التوراة.
- الزيارات للبيوت العربية.
- التجنيس: يعتبر التجنيس من القضايا الجدلية الحادة التي تصدّى لها علماء الزيتونة باعتبارها مسألة عقدية تتعلّق بالإسلام والردّة. وقد نشرت المجلّة الزيتونية في موضعين مقالا مطوّلا حول المسألة تحت عنوان "حكم الله في التجنيس"، قامت في الجزء الأوّل منه بعرض القضية على النحو التالي:
- مقدّمة: حول فتنة التجنيس وأنه مما ابتلي به المؤمنون، وكان سببا في تشتيت بعض العائلات، وإحداث الإحن والأحقاد بين الإخوة والأقارب. وكان المظنون

١- نفس المصدر السابق، ص ٢٢٩.

أن الفتنة فيه قد خمدت بعد الاعتراف الرسمي بكفر المتجنس وإحداث مقبرة خاصة بالمتجنسين.

- صورة التجنيس: قصد ضبط الموضوع وتحرير المسألة من خلال تعريف التجنيس ومآلاته.
- التجنيس في نظر العقلاء: فهم يستنكرون هذا العمل ويعتبرون من تلبّس بذلك محتقرا لوطنه وأمته ودينه. وهي جناية في حق بلاده ووطنه.
- التجنيس في نظر الشرع: عرض فيه صاحب المقال أدلة كثيرة على كون المتجنّس مرتدا، فقال: "ومن تتبع كتب الفقه وأمعن فيها النظر وقف على عدة فروع تدل على كون المتجنس مرتدا...والمجال لا يتسع لنقل جميع ما وقفنا عليه من الفروع فنقتصر منها على ما هو صريح في هذا الباب"[1]. فأورد في المبحث ثمانية أدلّة سمّاه فروعا، ذكر منها ثلاثة في الجزء الأول من المقال.

وفي الجزء الثاني منه، واصل عرض المسألة على النّحو التالي:

- أدلة ذلك من القرآن: حيث ساق الكثير من آراء المفسرين التي استغرقت جزءا كبيرا من البحث، مؤيّدا ذلك بفتاوى عديدة تونسية وغير تونسية، ومن غرائب الصدف كما قال أنه عثر على فتوى مشابهة "للمرحوم حسين وزير المعارف بالدولة التونسية قبل الاحتلال عندما كلفته الدولة بالنيابة عنها في قضية القائد شمامه اليهودي الذي كان متوليا لرئاسة القباضة العامة وإدارة المال بتونس وبعدما سرق أموال الدولة ذهب لإيطاليا وتجنس بجنسيتها حتى لا تتمكن الدولة التونسية من إلحاق العقاب به، فأفتى شيخ الإسلام المرحوم الشيخ أحمد بن الخوجة بعدم صحة اعتناقه للجنسية الطليانية ولو كان مقيما في دار الكفر ووافقه على ذلك أربعة من كبار فقهاء الحنفية في ذلك العصر،...وهي مؤرّخة بيوم ٢٩ جمادى الأولى سنة ١٢٩٤ الموافق لعام ١٨٧٧"[2].
- وختم كلامه بقوله: "ومن ذلك كله يظهر ظهورا بينا لا شك فيه لأولي الألباب

١- محمد المختار بن محمود: حكم الله في التجنيس. المجلّة الزيتونية، م ١ / ج ١٠ / ربيع الثاني ١٣٥٦، جوان ١٩٣٧، ص ٤٩٠.
٢- نفس المصدر السابق، ص ٥٤٧.

ولغير أولي الألباب أن المتجنس قد ارتد عن الإسلام وانسلخ عنه والعياذ بالله وصار في عداد المرتدين، واستبدل الهدى بالضلال، وباع الذي هو أدنى بالذي هو خير...وحيث قد ثبت أن المتجنس مرتد فيجب أن تنطبق عليه جميع أحكام المرتدين من حيث العقاب والأحكام وكل ما يترتب على ذلك"[1].

- ثمّ لخّص جميع أحكام المرتد حتى تقع معاملة المتجنّس بها حسب قوله..
- عقاب المرتد
- ما ينشأ عن الردة
- أموال المرتد وإرثه
- حُكم ديون المرتد
- حُكم تصرفات المرتد
- دفن المتجنّس
- توبة المتجنّس
- هل إذا تاب المتجنّس تعود له حسناته؟[2]
- معلوم أنّ هذه المسألة قد أسالت حبرا كثيرا ودار حولها نقاش طويل، خاصّة في ما يتعلّق بموقف علماء الزيتونة، وأقدّر أنّ صاحب المقال كان على وعي بخطورة القضية فأراد أن يحيط بها من جميع الجهات ويناقش جميع فرضياتها، ولعلّه بذلك يريد إلزام الحكومة التونسية بتطبيق تلك الأحكام الشرعية وعدم مجارات الإدارة الفرنسية التي سعت وبكلّ ثقلها لمنع صدور مثل هذه الفتاوى، التي ستضع حدا للنشاط الكنسي بتونس كما ستردع من تسوّل له نفسه الإقدام على التجنّس يومها، ممّا قطع كان له الأثر العميق في نفوس التونسيين الذين تصدوا لدفن المجنّسين في مقابر المسلمين، وطبّقوا عليهم الأحكام المتعلّقة بالمرتدين.
- التشبّه بالكفّار: ورد في قسم الفتاوى سؤال عن: حكم لبس البرنيطة في دار

١- نفس المصدر السابق، ص ٥٤٨.
٢- نفس المصدر السابق، ص ٥٥٢.

الحرب والإسلام.، بقلم الشيخ محمد الشاذلي ابن القاضي المدرس بجامع الزيتونة.

ونصّ السؤال على طوله.:

- سيدي محمّد السنوسي حرس الله كماله وبلغه في الدارين آماله عمن يتعمد لبس البرنيطة في بلاد الإفرنج وهو قادر على استعمال الشاشية ولا يناله من استعمالها سوء، فهل يعد لبسه لها من علامات الاستخفاف بالدين وإن لم يقصد بلبسها الارتداد عن الدين وتجري مجرى علامات التهاون الظاهر؟ أم ينظر فيها لقصد لابسها؟ وإذا اعتبر قصد لابسها فهل يعتبر قضاء وإفتاء أم في الفتوى فقط؟ وهل إن قصد لابسها بلبسها مجرد الاختلاط بسواد الإفرنج حتى لا يكون معروفا فيما يفعله مما يزين أو يشين استتارا عن العيون أو قصد بلبسها مجرّد التشبه بالإفرنج لاستحسان ما هم عليه في زيّهم أو التحبّب إليهم بوجه من الوجوه أو لبسها لمصلحة فضلها بها عن الشاشية بزعم أنها تُصلح الرأس أو تزين اللابس، يكون بهاته المقاصد السيئة سالما من موجب الردة، أم أن هاته المقاصد تعتبر حجة عليه في التشبه والاستحسان المفضيين للتهاون والاستخفاف بالدين؟ وهل من لم يخالج صدره شيئا من هاته المقاصد المذكورة يحمل صنيعه على ما يتراءى من الاستخفاف أم يكفي نهيه عن العود لذلك؟ وهل لابسها للسخرية به أو الاستحسان حكمه حكم من لم يكن له قصد أم حكمها مختلف؟ وهل من يلبسها في بيته وهو مقيم في بلاد الإسلام لقصد التبرد فيما يزعم أو قصد آخر غير الارتداد يكون سالما بقصده وهو بين أظهر المسلمين يرونها علامة مختصة بالمرتدين أم لا؟

وقد أجاب المفتي عن ذلك من خلال:

- ذِكر العديد من الأحاديث النبوية
- اَستقصاء آراء العلماء في ذلك متقدميه ومتأخريهم.
- نظر في آراء العلماء المجتهدين على اختلاف مذاهبهم الفقهية

ثم عقد مبحثا تحت عنوان: التصحيح والترجيح، أعاد فيه صياغة السؤال واستخرج منه ما يمكن أن يمثّل خطورة لما قد يتعلّق بذلك الفعل من رِدّة مفرّقا بين استحسان الشيء واعتقاد أفضليته عن دين الإسلام. ولتدعيم رأيه فقد أورد ما نقله الطحاوي عن أبي حنيفة: "لا يخرج الرجل من الإيمان إلا جحود ما أدخله فيه، ثم ما تيقن بأنه ردة يحكم بها وما يشك أنه ردة لا يحكم بها إذ الإسلام الثابت لا يزول بالشك مع أن الإسلام يعلو وينبغي للعالم إذا رفع إليه هذا لا يبادر بتكفير أهل الإسلام مع أنه يقضي بصحة إسلام المكره"[1].

أما في ما يتعلّق بحكم لابسها من حيث العقوبة أو الترك، فقال: "وحيث فعل بلبس العلامات الخاصة بالكفار محرما فإنه يعزر. وقال في الأشباه كل مرتكب معصية لا حد فيها، فيها التعزير"[2].

إلى جانب تلك القضايا الجدلية فإنّنا مسائل أخرى لا تقلّ عنها أهمية من حيث العرض والمناقشة والتحليل والنقد، مثل: النبوّة، قضايا تتعلّق بأهل الكتاب، التعليم، العناية بالمرأة، الشباب واللاّئكية، الاستشراق، وهي لئن دلّت على شيء، إنّما تدلّ على مدى التوتّر الذي يطبع العلاقة بين الطرفين، بل قل بين التونسيين وحكومة الاحتلال الفرنسي وحليفتها الكنيسة. فالتونسي لا يفرّق بينهما باعتبارها شريكين وطرفا مقابلا للحركة الوطنية التونسية، على اختلاف ظاهرهما، لتوحّد مسلكهما وتوافق مسارهما.

والملفت للنّظر أنّ تلك القضايا الجدلية كشفت عن حقيقة موقف كل طرف من الآخر ولكن الظروف الموضوعية والمعطيات لم تسمح بإعلان ذلك، لعدم تكافؤ القوى نتيجة الهيمنة العسكرية القاهرة، وشعور التونسي بالضيم والإهانة وعدم قدرة ردّ الفعل، ولكن بحسب مجريات الأحداث من خلال تتبّعنا لمنظومة مقالات المجلّة الزيتونية فإنّ النُّخب التونسية خاصّة الزيتونيين وأبناء الصادقية والعلوية كان لهم الأثر الكبير والدّور الفعّال في تنمية مشاعر الاحتجاج والارتقاء به من طور النقاش والتفاعل الدّاخلي إلى حيز الرّفض والاحتجاج المباشر والتهديد.

١- محمد الشاذلي ابن القاضي: حكم لبس البرنيطة في دار الحرب ودار الإسلام. المجلّة الزيتونية، م ١ / ج ١ / رجب ١٣٥٥، سبتمبر ١٩٣٦، ص ٤٢.

٢- نفس المصدر السابق، ص ٤٣.

مقاربة منهجية للقضايا الجدلية:

بحسب العرض السابق لمحتوى المصدرين اللّذين ارتبط بهما البحث: المجلّة الزيتونية و La Tunisie catholique يتبيّن لنا أنّهما كان يعيشان نفس القضايا ويتفاعلان معها داخليا، ولكن تحت ضغط الواقع خرج الصراع وطفح على السّطح، وذلك لاعتبارين اثنين:

- استمامتة الكنيسة في المضي قدما في سياسة التنصير.
- رفض التونسيين المطلق التعدي على مقوّمات الهوية الوطنية.

فكان لزاما لذلك الواقع أن تتغيّر ملامحه، ببروز نمط جديد من التعاطي مع تلك التحديات والتي عبّر عنها في مرحلة أولى بالقلم من خلال الصحافة، تبعه الاحتجاج الناعم ثم العنيف، انتهاء بتنظّم قوى الحركة الوطنية التونسية، لذلك اعتبرنا خطاب الرئيس الحبيب بورقيبة سنة ١٩٦١، إعلان للقطيعة، ليس في مظهرها السياسي بل لاعتبارات دينية عقدية، كشف من خلالها طبيعة الاحتلال الفرنسي وأجنحته الكنيسة ومؤسسات المجتمع المدني الفرنسي، التي اتّحد هدفها في اتّجاه قطع تونس عن هويتها وعزلها عن محيطها الإسلامي. ولعلّ في القضايا الجدلية التي عرضناها في طيات البحث:

- المؤتمر الإفخارستي الثلاثين بتونس سنة ١٩٣٠
- مؤتمر التجنيد الكهنوتي بتونس سنة ١٩٣٢
- نشرية الكنيسة البروتستانتية (عاملون مع الله)
- مشروع تنصير الشعب التونسي
- قضية التجنيس

كلّها روافد يجمع بينها خيط ناظم، تعرف الكنيسة طبيعته وتعلم المجلّة الزيتونية غايته، ولذلك تشابهت القضايا التي طرحاها رغم اختلاف جمهور القرّاء غالبا، ولكن بحسب تصوّرنا كان التفاعل بينهما دقيقا، وإن لم يكن مقصودا لذاته. بل تلك الإشكالات أو القضايا العميقة هي الأسئلة الحقيقية التي كان يجب أن تعالج،

وهي التحدي المتبادل الذي يجب أن يكون، ولو كان غير ذلك لا نظن أنّ المجلّتين سيكون لهما هذا الزّخم وتلك الأهمية. وهي النتيجة المخيّبة لآمال رجال الكنيسة الذين لم يروا شفاه المسلمين تتبلّل في كأس النبيذ لأنّ الإسلام يمنعهم[1]. ولعلّ في مقدّمة مقال محمد الشاذلي بن القاضي "الإسلام والمبشّرون" إجابة: "ولا غرابة في ذلك فإن الإسلام ينهى عن الفساد في الأرض وعن الشرور والآفات كقتل النفس بغير حق والتعدي على الحقوق وتعاطي المسكرات والمقامرة والسرقة والربا وأكل أموال الناس بالباطل..."[٢].

خاتمـــــة

القضايا الجدلية أو التحدي المعرفي، مصطلحان صارمان جمع بينهما علاقة التنافر والتضاد التي طبعت علاقة الكنيسة والمجتمع التونسي المسلم، رغم أنّ الكنيسة لم تفهم أو لم ترد ذلك، وهي أن الشعب التونسي مسلم عريق في هويته الحضارية وأنّ تونس دولة مسلمة تنتمي لمحيطها الحضاري، يجب التعامل معه بناء على تلك الخصوصيات الحضارية. ومن الملفت للنّظر أنّ أقلام المجلّة الزيتونية كانوا على درجة من الوعي بحركة التاريخ من خلال تكرارهم لقيم التراكم التاريخي وأن تونس نتيجة ثراء مكوّنات حضارية متتالية، إلاّ أنّ التاريخ لا يسير إلى الخلف، وهو ما لم تقدر الكنيسة على التسليم به وبقيت رهينة التّاريخ، ولم تستطع مواكبة الواقع، صحيح أن ما تتمتّع به من الوضعية القانونية المميّزة والمريحة والحماية اللاّمشروطة من الاحتلال الفرنسي أنسياها سنن التّاريخ، ولكن التوجّه العام لمسيرة الكنيسة كان من الممكن أن يفتحا لها أفقا جديدا، وهو ما انتهت إليه بعد قرابة الثلاثين سنة من تاريخ انعقاد المؤتمر الإفخارستي بتونس ١٩٣٠.

1- « On voit les invités musulmans refuser de tremper leurs lèvres dans un verre de vin, parce que l'Islam le leur défend ». In. La Tunisie catholique (Archidiocèse de Carthage). N° 8. Dimanche 25 février 1923. p 131.

٢- محمد الشاذلي ابن القاضي: الإسلام والمبشرون. المجلّة الزيتونية، م ٥ / ج ٩ / صفر ١٣٦٤، فيفري ١٩٤٥، ص ٢١٨.

وبناء عليه، فإنّه يكمن الإشارة إلى نتيجتين مهمّتين حققهما البحث:

- **النتيجة الأولى:** أن القضايا الجدلية كانت إشكالات حقيقية، ومثّلت نقاط التقاء بين المجلّتين، حدّ التناغم.
- **النتيجة الثانية:** أن تلك القضايا الجدلية العميقة والخطيرة كانت سببا في توحّد النُّخب التونسية وفي ضوئها تأسّست الحركة الوطنية التونسية ومن أجلها عملت، دون تجاهل لبقية القضايا الوطنية ولكن بحسب تحليلنا لمسيرة تلك الأحداث، فإنّها تابعة لها غير مستقلّة عنها.

وفي الأخير، نرجو أن يكون هذا البحث سببا لإثارة بقية السادة الباحثين، والالتفات ثانية لهذين المصدرين وتوسيع البحث في تلك القضايا الجدلية التي لم يدّع الباحث استقصاءها وحصرها، لأنّه تعاطى مع ما يتناسب ومسار البحث خادم لإشكاله الذي من أجله أُعِدّ.

والله الموفق ،،،